

كلمة العدد:

بين الألم والأمل

بقلم: عمر الكتراري

عندما نقصد المستشفيات ومراكز العلاج والعيادات الطبية بكل أصنافها نجد حشوداً من الناس بين الانتظار والرجاء. تختلف الأعمار والأجناس والمظاهر وتتباعد الأصول والانتماءات الاجتماعية والجغرافية بين الحضور... يتسابقون... تشرّب أعماقهم كلما برز صاحب الزي الأبيض... يتبادلون الشكوى في لغط يعلو وينخفض عندما يطرأ تغيير على عناصر المشهد... تنشأ علاقات وتنتهي بانتهاء ذلك الانتظار المملّ المرهق.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sa>

الألم وحد بين هؤلاء والألم...

الجميع في خندق واحد لمقاومة الألم.

حين يعتصر الألم الجسم يضطرب كل شيء فيه... يخضع كل شيء لمشيئته. يصبح كل شيء مباحاً لإسكاته فيهرع المتألم إلى ما أمكن الوصول إليه... يستنفر كل ما يتوفّر لديه مادياً كان أو غير مادي عساه يعيد الأمور إلى نصابها. عندما تغيب الحيلة وتخفق كل أسلحته في صدّ العدوان يلجأ إلى الملاذ الأخير... إلى آخر حصن فيه يتمترس: الصبر والرجاء.

المريض هو الصبور حسب التعبير الفرنسي.

مقاومة الألم هي سعي لتأخير الموعد النهائي... هي محاولة لإطالة مدة السفر في قطار الحياة.

مقاومة الألم هي تشبث بالبقاء بالحياة في أدنى مظاهرها: دورة دموية نشيطة وتناوب منتظم بين الشهيق والزفير. أيهما المضاف وأيهما المضاف إليه؟ لا ندري.

عندما يعتربك الألم فأنت تتحمله وحدك... بمفردك... لا أحد يحمله عنك.

مهما تفاعل معك القريب والحبيب والمشفق فأنت وحيد فوق الحلبة في مواجهة اللكمات.

ما أكثر مصادر الألم عند الإنسان: فالسقم ألم والحزن ألم والفرق ألم والندم ألم والفقر ألم والإخفاق ألم والشبحوخة ألم والضعف ألم والانتظار ألم كل ذلك يترصدي ويترصدك في مسار الحياة المضني.

وأنت في معترك الحياة تصارع الأمواج تصارع الألم بين الهزيمة والانتصار تطالعك ابتسامة مشرقة تعيدك إلى إنسانيتك وتنسبط لها أسارير وجهك الممتقع... لون أخضر يحيلك إلى فصل الدفء والازدهار، نور يبدد القتامة الجاثمة على صدرك فإذا به كاليد الممتدة إليك على فراش الألم لا تقوى على الحركة تمتد إليك لتسندك وتعينك على التهوض: إنه الأمل في الشفاء... الأمل في تجاوز الحنة الأمل في الانتصار على الألم ودحره وإخماده.

الأمل في حد ذاته نصف الشفاء وبين الألم والأمل ترتيب حروف شكلا و شقاء وسعادة مضمونا.

قراءة (جواد علي) لموارد تاريخ الطبري من خلال مجلة المجمع العلمي العراقي (1) بقلم الباحث: صالح الأحدي

لما كانت قراءة التاريخ والمعرفة به أمراً يثير الوجدان على التذكر ويثير الأذهان على التركيز والتفكير، فإن معرفة موارد التاريخ أولى بهذه الإثارة، وهو فن من الفنون يتطلب التدقيق والتحقيق يخضع للملاحظة والتحرية والفرضية والقانون. ثم لما كان التدوين من الأمور التي تسهل قراءة التاريخ وفهمه، فإن من المؤرخين العرب من حمل هم البحث والتقصي في التاريخ العربي ومن ثم الحضارة العربية وأمضى جل حياته في الكشف والتمحيص بين أطلال القبائل وتضاريس الصحاري العربية يحفر في أعماق خرائب الأرض لينقل إلى العرب حركة الحياة هناك، ويعود في حين آخر إلى دراسة المصادر العربية للتاريخ المكتوب مقلّبا بين أوراقها، مستكشفا ما بين سطورها ليعرف الموارد المعتمدة في هذه الكتب التاريخية. وكان (جواد علي)⁽¹⁾ من أولئك الذين حرصوا

¹ - ولد جواد علي في الكاظمية عام 1907، تخرج من دار المعلمين العالية عام 1931، حاز الدكتوراه من جامعة هامبورغ عام 1939 تعرض للاعتقال عام 1942 لأسباب سياسية، مارس التدريس في المعاهد والجامعات العراقية والأجنبية عين عضوا في المجمع العلمي العراقي سنة 1948

كلّ الحرص على التدقيق في موارد التاريخ وإزاحة الخطأ من طريق الصواب ويتحلّى هذا الاهتمام في اشتغاله على موارد تاريخ الطّبري من خلال الدّراسات التي وردت متعاقبة ومنفصلة مدوّنة ضمن مجلّة المجمع العلمي العراقي - وهو عضو قارّ فيه - وذلك بحسب صدور هذه المجلّة وهي "مثل المجلّات الجمعية الأخرى لا تتقيّد بشهر أو فصل فليست بالمجامع دور نشر فتتقيّد بقيود مواعيد إصدار ولا بعدد الصّفحات وقاعدتها في النشر والتمسك بالمجلّدات وقد يكون المجلّد جزءاً واحداً وقد يكون جملة أجزاء"⁽¹⁾. حيث نجد أنّ دراسة موارد تاريخ الطّبري مبحث موجود في الجزء الأوّل من المجلّة شهر سبتمبر - أيلول 1950 من صفحة 144 إلى صفحة 231 ، ثمّ يليه تحليل آخر لنفس الموضوع بعنوان (تاريخ الفرس والروم) في الجزء الثاني من المجلّة الصّادر سنة 1951 من صفحة 135 إلى صفحة 190 وفي المجلّد الثالث الجزء الأوّل لسنة 1954 (العرب قبل الإسلام) من صفحة 16 إلى صفحة 56 ، ثمّ

وعضوا مراسلا لمجمع اللغة العربيّة في القاهرة عام 1956. توفي عام 1987. من أهمّ مؤلفاته: صورة الأرض (1951) أصنام العرب (1967). معجم ألفاظ الجاهليين (1968) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (بغداد - بيروت 1976) تاريخ الصّلاة في الإسلام (بغداد) وكتاب المهدي المنتظر عند الشيعة الإثني عشرية عام 1939 قدّمه بالّلغة الألمانية في شكل أطروحة لنيل الدكتوراه. (من هذا الكتاب الأخير اقتطفنا سيرة جواد علي، وهو كتاب ترجمه عن الألمانية د- أبو العبد دودو،

منشورات الجمل 2005)

في المجلد الثامن لسنة 1961 بعنوان (الخلافة) من صفحة 425 إلى صفحة 439. وبذلك توزعت قراءة (حواد علي) لموارد تاريخ الطبري على أربعة أجزاء بين ثنايا مجلة المجمع العلمي العراقي. وفي هذه الدراسة التي نقدّمها نحاول أن نجتمع بين هذه الأجزاء، لتتكوّن لدينا رؤية شاملة حول هذا الموضوع، وقد كان دافعنا إلى ذلك ما يحظى به كتاب تاريخ الطبري في الثقافة العربيّة والإسلاميّة من مكانة، فهو مورد تستقى منه الحقائق وتبنى عليه المعارف، وقد يحجم المجادل عن الجدل في مسائل ذكرها الطبري وحسم فيها، وكأنّه بذلك أوصد عن غيره أبواب الخوض في تلك المسائل التاريخيّة. ولكنّ يطالعنا المؤرّخ (حواد علي) بجرأة ساعدته على اقتحام ذلك الأثر الذي تركه الطبري، بل بدأ ينبش ويدقّق بين ثنايا حقائق ذلك الكتاب ليستخرج من حين لآخر حقائق جديدة، ويزيل التراب عن أخرى ليحلّ محلّها.

1- تاريخ الطبري⁽¹⁾ : هو تاريخ الأمم والملوك أتبع فيه صاحبه منهج المحدثين وهو أن يذكر الحوادث مروية بمقدار ما عنده من الطرق. محتويات الكتاب: المجلد الأول: فيه خطبة الكتاب (مقدّمة)، ثمّ يذكر الدلالة على حدوث الزّمان (ص 2) وينتهي بذكر غزوة حمراء الأسد (ص 400) أمّا الترتيب الزّماني فقد بدأ هذا المجلد بالحديث عمّا كان قبل الهجرة إلى السّنة الثالثة هجريًا.

¹ - محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري يكتي بأبي جعفر (224 - 310هـ)

المجلد الثاني: يبدأ بذكر الأحداث التي كانت في سنة أربع من الهجرة (غزوة الرّجيع) ص 402 وينتهي في صفحة 820 ببداية ذكر الخير عن الوقت الذي قتل فيه عثمان رضي الله عنه مع سنة 35 هجرية.

المجلد الثالث: يبدأ بما انتهى به في المجلد الثاني حول مقتل عثمان، ذكر الرواية بذلك (وقت مقتل عثمان) عن بعض من قال إنه قتل في سنة ست وثلاثين (ص 821) لينتهي في الصفحة 1242 بذكر الخير عن غزو عبيد الله بن أبي بكر بلاد رتبيل بدخول سنة تسع وسبعين.

المجلد الرابع: يبدأ بذكر أحداث دخول سنة ثمانين من صفحة 1243 إلى صفحة 1634 بدخول سنة سبع وخمسين ومائة ذكر الخير عما كان فيها من الأحداث.

المجلد الخامس: يبدأ بذكر الخير عما كان في سنة ثمان وخمسين ومائة من الأحداث (خير تولية خالد بن برمك الموصل) صفحة 1635، وينتهي في صفحة 2062 بذكر الخير عما كان في سنة سبع وخمسين ومائتين من الأمور الجليلة (خير مسير يعقوب بن الليث إلى فارس).

المجلد السادس: يبدأ فيه بذكر خير الهزام الزنج على يد سعيد بن الحجاب ضمن أحداث سنة 257 ص 2063 ثم ينتهي في هذا المجلد إلى صفحة 2193 بذكر الخير عما كان في سنة اثنتين وثلاثمائة من الأحداث. أما بقية صفحات المجلد (من ص 2195 إلى ص 2505) فقد خصصها المحقق لوضع الفهارس العامة. (15 صفحة للمحتويات، 11 صفحة للأرجاز، 37 صفحة للأشعار، 48 صفحة للأماكن و195 صفحة للأعلام).

2- منهج (جواد علي) في قراءة موارد تاريخ الطبري:

إنّ المتتبع لقراءات (جواد علي) في موارد تاريخ الطبري من خلال ما نشر في مجلة المجمع العلمي العراقي لا شكّ سيضفر بوجود رؤية خاصّة، بهذا الرّجل أثناء معالجة المسألة اعتمد فيها التحليل والتدقيق ثمّ هو يعقد مقارنات ومقابلات ومطابقات بين موارد الطبري وموارد غيره من المؤرّخين ثمّ يعلّق على ذلك، بل أحيانا يرجّح بعد أن يوازن بين الموارد، وقد تطول تحليلاته ومقارناته فيحمل القارئ معه إلى التوغّل في مصادر على مصادر وموارد على موارد حتّى يُظنّ أحيانا كثيرة أنّ الرّجل محدّث يبحث في أحوال الرّجال وفي الأسانيد وفي الجرح والتعديل، ويغيب ذكر الطبري ليحلّ محله أحد موارده في صفحات من تحليله بل المورد يحلّله إلى مورد آخر فيأخذ معه القارئ ليعود به في النهاية إلى الطبري، والظاهر أن هذه التّهويمات - إن جاز التعبير - اقتضتها طبيعة المشغل المبني على الرواية أساسا، فأسلوب الطبري الحافظ المحدث الرّاوي جعل جواد علي يدرس هذه المسألة بالتحري والتقصّي في الرواة الذين أخذ عنهم الطبري والتدقيق في أحوالهم.

وقبل أن يدقّق (جواد علي) في المواد التي اعتمدها الطبري في تاريخه ألقي لفتة إلى كتابه "جامع البيان في تفسير القرآن مبينا طريقة هذا المفسّر في التعامل مع معاني الآيات القرآنية، بحيث "إن كان معناها واضحا لا يعدل عنه إلى التفسير وإن كان غامضا رجع إلى الروايات

القديمة وما ورد عن السلف فيها"⁽¹⁾ ثم إن موارد الطبري في التفسير هي اللغة، وشواهد من الشعر القديم والأمثلة وفيه مسائل كثيرة من الاختلافات اللغوية بين أهل البصرة وأهل الكوفة مما جعل هذا الكتاب محل شهرة، ولذلك يعتبره (جواد علي) كتاب عرض للمادة دون نقد أو تمحيص. وأسلوب الطبري في هذا نجده يتواصل في كتاب اختلاف الفقهاء "إذ أورد فيه أقوال الفقهاء إيراداً يدل على شدة حرصه في الجمع"⁽²⁾. فبعد أن بين (جواد علي) طريقة الطبري في كتاب التفسير أحالنا إلى منهجه في كتاب "اختلاف الفقهاء" فلم تختلف الموارد في المرجعين ولكنها في الكتاب الثاني شذت قليلاً باعتبار أن الطبري هنا لم يتقيد بالإسناد فقط وهو "عمل حريء في نظر المحدثين" كما عبّر عن ذلك (جواد علي)، ولم يتقيد أيضاً بقواعد الرواية تقيداً تاماً. ويظهر أن علم الطبري بالفقه والفقهاء دون علمه بالحديث والمحدثين فبعد أن بين (جواد علي) مصادر الطبري الفقهية بإيجاز قال: "والظاهر أن الطبري لم يكن له علم بكتاب المدونة الكبرى... لذلك لم ينقل منه شيئاً... ولم يرد لكتاب الأم المنسوب للإمام الشافعي ذكر في كتاب الطبري وذلك مما يدل على أنه لم يكن يعرف هذا العنوان"⁽³⁾. هذه الإطلاقة الوحيدة على بعض كتب الطبري هي تمهيد من (جواد علي) وهي مفتحات لدسامة ما سيأتي في ثنايا معالجته لكتاب "تاريخ الرسل

¹ - جواد علي : بحلة الجمع العلمي العراقي سنة 1950 / ج 1 ص 160

² - المصدر نفسه ص 161

³ - المصدر نفسه: ص 163 ، 164

والمملوك" أو بالأحرى معالجة مصادره - وهو رجل مؤرخ كما أسلفنا أو مشغول بالتاريخ- ويعتبر أنّ ذلك التسامح أو التجاوز الملحوظ في التعامل مع الإسناد والرواية في كتاب "اختلاف الفقهاء" تشدّد في كتاب تاريخ الرسل والمملوك" فمنذ البداية في التدقيق والمعالجة برسم جواد علي المخطوط العامة لموارد تاريخ الطبري "تبدأ الحوادث عنده بذكر السند... وفي كتابه نضج تامّ في الرواية على طريقة أهل الحديث... وحتى المواضيع التي لم يعتمد فيها الرواية، إنّما أخذها من الكتب أو عن طريق الإجازة بالرواية من الكتب"⁽¹⁾.

3 - نقد (جواد علي) لمنهج الطبري في تاريخه

عالج (جواد علي) موارد الطبري وفق الطرح الذي بنى عليه هذا الأخير تاريخه من حيث اعتماد أسلوب الرواية وقد كان بارعا في ذلك، حيث "عرض الروايات التاريخية المختلفة ببراعة عرضة لزيها، ناسبا كلّ رواية إلى صاحبها تاركا أمر التعليق عليها إلى القارئ يحكم لها أو عليها بما يشاء، ... وقد اعتمد الطبري في كلّ فصل من فصول كتابه على مراجع منها شفوية أخذها سمعا من مشايخه، ومنها مؤلفات أجاز بروايتها وأخذ منها، وقد جمع كتابه من مصادر كثيرة فأظهر مقدرة فائقة في الجمع بين المصدر والإطلاع على الكتب التي ألّفت قبله"⁽²⁾. وفي هذه القراءة وضع (جواد علي) كتاب الطبري ومنهجه وموارده في

¹ - المصدر نفسه: ص 164

² - جواد علي : مجلة المجمع العلمي العراقي سنة 1950 / ج 1 ص 159

مختبره يلاحظ ويعقد المقارنات والمقابلات ويحلل، فقد بدأ بالتظنر في الرواية لأنها كانت الطريقة المحببة إلى نفس الطبري في تاريخه وهي طريقة تحتل الأخطاء ومع ذلك لم يذكر الموارد الكتابية التي اعتمد عليها في تاريخه الذي يعتبر مرجعا يعتد به لدى الكثير من الباحثين والمشتغلين بالتاريخ، ولأن الرواة أو الشيوخ الذين ذكرهم الطبري في أسانيده "لهم مؤلفات عديدة فمن أي مؤلف من هذه المؤلفات نقل الطبري قوله، ثم إن في إهمال عناوين الكتب خسارة فادحة للعلم"⁽¹⁾ هذا التقصير في ذكر المراجع الكتابية - عمده الطبري أو تطلبه علمه بالرواية والحديث وحفظه الأسانيد - مهما كان سببه هو في نظر (جواد علي) جناية على المعرفة وتعدّي على حقوق الأجيال اللاحقة في التواصل مع تاريخهم وثقافتهم لأن "ما نعرفه اليوم من أسماء الكتب لا يعدّ في الحقيقة شيئاً بالنسبة إلى المفقود"⁽²⁾ وحتى أسلوب الرواية الذي اتبعه الطبري فإن (جواد علي) يرى فيه طريقة مربكة للقارئ فقد كانت رواياته متداخلة فهو "يروي الحديث ناسبا إياه إلى محدثه فإذا وصل إلى موضوع مختلف فيه قطعه ليذكر مواضع الاختلاف... فإذا انتهى منها عاد إلى المتن إلى الموضوع الذي وقف عليه"⁽³⁾، ولذلك نجد (جواد علي) يتمنى على الطبري "لو أتبع طريقة جمع الأصول وتكديسها بعضها على بعض وتدوينها... حتى يمكنه أن يقارن ويرجح

¹ - المصدر نفسه: ص 166

² - م - ن، ص

³ - المصدر نفسه: ص 167

بعضها على بعض، ولكن للأسف لم يتبع الطبري هذه الطريقة وحرّم القارئ متعة الموازنة والمقابلة بين الآراء في الموضوع الواحد. وقلّما كان الطبري يبدي آراءه في الحوادث أو مناقشتها مناقشة عميقة أساسية بصراحة تامة⁽¹⁾ وكان في طريقة تدوين تاريخه يعتمد صورة الحوليات متقيداً فيها بترتيب السنين وهي طريقة قديمة "عرفت عند الأشوريين والمصريين والبابليين واستعملها كثيراً مؤرخو اليونان والرومان"⁽²⁾ فكتاب الطبري متسلسل وفق وقوع الحوادث عاماً بعد عام وقسمه إلى فصول شدّ فيها الفصل الأوّل عن طريقة الحوليات لأنه فصل يتعلق بما قبل الإسلام وتعذر فيه الحصول على تواريخ محددة بدءاً بالخلق الأوّل وذكر الأنبياء والملوك والأمم السابقة. أمّا بقية الفصول أي بظهور الإسلام (من الهجرة) بالتحديد فهي مرتبة وفق الحوليات. وقد كان اهتمام الطبري مثل أكثر المؤرخين الذين كتبوا في التاريخ العام مقتصرًا على التاريخ السياسي متأثراً حسب ما يرى (جواد علي) "بروحية العصر الذي عاش فيه... وبالنظرية التي وضع قواعدها فيلسوف الكنيسة القديس أوغسطين... فجعل التاريخ صراعاً بين قوتين أو مملكتين: مملكة الله في السماء حيث الحق والعدل ومملكة الشيطان في الأرض حيث السقوط والغواية..."⁽³⁾

4- موارد تاريخ ما قبل الإسلام عند الطبري:

¹ - المصدر نفسه: ص 168

² - المصدر نفسه: ص 173

³ - المصدر نفسه: ص 175

إنَّ هذا القسم من كتاب تاريخ الطَّبري هو من أكثر ما كتبه العرب المؤرخون في التاريخ العام، ولكن يظهر من قراءة (جواد علي) لموارده أنَّه صبغ باللون الخيالي القصصي "ففي تضاعيفه مادة واسعة من الأساطير والحكايات التي ترجع إلى العهود التاريخية القديمة للإنسان حيث تحتل السذاجة وبساطة التفكير الميزة الأولى فيها... وفيه مادة واسعة من الإسرائيليات التي نستطيع البحث عن مصادرها في العهد القديم... ومادة من الأساطير الشعبية الوثنية ولكنها قليلة بالنسبة إلى العناصر الأخرى المستفحلة في هذا القسم"¹. مصادر هذا القسم إذا منقولة حفظاً دون أدنى غريبة تقتضيها طبيعة عمل المؤرخ وذلك بسبب أن الطبري محدث ينقل للناس ما يحفظه وما يعرفه، وهاهو (جواد علي) لا يستسيغ هذه المادة المنقولة ويبدأ في فروها ونقدها باحثاً عن الفائدة من عرض المادة (الأقوال المنقولة) للقارئ فيكشف ما لَفَّ أغلبها من خيال وأساطير صنعها الإنسان، وكلَّما نقلها راو إلى آخر زادها تزويقاً وأضفى عليها الغرابة لتصبح مادة تغذّي التفكير البسيط والعقل الساذج. وفي هذا القسم تحدّث الطبري - أو روى - عن تاريخ الرسل فكانت موارده كما عيّنها (جواد علي) هي تاريخ على تاريخ، ومن أشهر وأهمّ هذه الموارد.

- وهب بن منبه: (توفي 114هـ) عرض (جواد علي) في دراسته لهذا الرجل مجموعة من الكتب التي نسبت إليه ثم بدأ في البحث والتنقيب في الأسانيد والإحالات وربط المراجع ببعضها وبيّن الفرع من الأصل فيها

¹ - جواد علي : مجلّة المجمع العلمي العراقي سنة 1950 / ج 1 ص 183

حتى يعرف ويعرف بأثر وهب بن منبه في تاريخ الطبري . وقد طهر له أن وهب بن منبه كان مشغلاً بالقصاص ، وقد كان لتاريخ الطبري نصيب منها " حصل عليها من سيرة ابن إسحاق ومن مشايخه الذين وقفوا على روايات وهب بن منبه مثل محمد بن سهل ابن عسكر بن عمارة المتوفى سنة 251 للهجرة بمدينة بغداد" ⁽¹⁾ . ولينتهي في بحثه حول سند رواية الطبري أي في هذا المورد وهب بن منبه مقارنا بين هذه الرواية وغيرها عند بقية المؤرخين مثل المسعودي ، موازنا بين أقوال وهب بن منبه المدونة في تاريخ الطبري ونصوص العهد القديم ليفرق بين الصحيح فيها والخطأ ويفرز ما ينتهي إلى مصادر نصرانية عن الذي ينتهي على مصادر يهودية بل أثبت أن من أحاديث وهب بن منبه ما يرجع إلى أصل يوناني مثل حديثه عن العناصر والطبائع الأربعة . فثقافة جواد علي وإطلاعه جعلاه يتفحص حالة المورد جيّداً من كل الجوانب وفي كل التفصيلات لعلّه يظفر برأي عادل في الحكم على مورد الطبري هذا.

- كعب الأحبار: أورد الطبري له أقوالاً في الأنبياء والإسرائيليات فهو " يهودي من أهل اليمن لا يعرف من أمره شيئاً ولم ينسب له كتاب والظاهر أن ما نسب إليه إنما ورد عن طريق الرواية" ⁽²⁾ . وجملة الأقوال التي أخذها الطبري وهي منسوبة إليه قال عنها (جواد علي)

¹ - المصدر نفسه ص 187

² - المصدر نفسه ص 194

بأنها لم تدرس ولم تقابل بالمصادر اليهودية، والعلة في رواية الطبري عنه أن من أكثر الناس حديثاً عن كعب هو ابن عباس وأبو هريرة. غير أنه لم يثبت أي دليل على التقاء ابن عباس بكعب، أما أبو هريرة عن كعب، هي أحاديث في الأنبياء والإسرائيليات في حاجة إلى دراسة عميقة. ولعل أهم المصادر التي اعتمدها كعب الأخبار وأمثاله في صنع الأخبار في الجملة لا تخرج عن القصص والتخيل بل لا يتورع كعب ووهب عن الكذب كما ذكر (جواد علي) ناقلاً عن مثال ذكره المسعودي "والواقع أن كعباً ووهباً لم يكونا يتورعان عن الكذب محاولة منهما لإثبات أن لهما علماً بكل شيء"⁽¹⁾ ويغيب كعب عند الطبري في قصة يوسف بينما في كتب التاريخ التي ذكرت قصة يوسف ذكرت كعب الأخبار وقد علل (جواد علي) ذلك بأن هذه الكتب أتت متأخرة على زمان الطبري.

- كتاب سيرة ابن إسحاق: لهذا الكتاب أثر واضح في تكوين الأجزاء الأولى من تاريخ الطبري "وقد ضمّنه مؤلفه مادة واسعة من تاريخ الرسل والملوك والإسرائيليات" ويأسف (جواد علي) على فقدان هذه السيرة باستثناء ما خلّده ابن هشام في سيرته "وتجدها مبعثرة في صفحات تاريخ الطبري"⁽²⁾ ثم راح (جواد علي) يبحث في سيرة ابن إسحاق ويدقق ويقابل ويوازن كعاداته بين الروايات والنسخ التي يذكرها المؤرخون، ثم ذكر مطاعن علماء الحديث على ابن إسحاق

¹ - جواد علي: بمجلة اجمع العلمي العراقي سنة 1950 / ج 1 ص 196

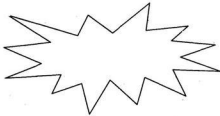
² - المصدر نفسه ص 200

بسبب مخالفته قواعد الإسناد وتساهله في الرواية، وبسبب اعتماده على روايات اليهود والنصارى الذين كان يسميهم "أهل العلم الأول". فتعمق جواد علي في عرض ما حَفَّ بسيرة ابن إسحاق وطرق إسنادها دليل على حرصه على التحري في هذا المورد خاصة وأنه سيكون له أثر في تاريخ ما قبل الإسلام وتاريخ البعثة وما بعدها. وقد قام بإحصاء أسماء الرجال الذين ترددت أسماؤهم في تاريخ الطبري في معرض استعمال سيرة ابن إسحاق، ولعل لابن عباس في سيرة ابن إسحاق مادة واسعة جعلت الطبري يتعلّق بروايته بحيث ورد اسمه 286 مرة وفي هذا العدد دليل على المتزلة التي خطى بها ابن عباس في كتاب تاريخ الرّسل والملوك، بينما ورد اسم أبي هريرة 52 مرة وأنس بن مالك 47 مرة، "فلا نكاد نقرأ فصلاً من فصول الطبري إلا ونجد فيه قولاً أو أكثر لابن عباس في الإسرائيليات وفي الشعوب العربية البائدة وفي المغازي ولا نكاد نقرأ كتاباً من الكتب التي تبحث في مثل هذه الموضوعات إلا نجد فيها كلاماً لابن عباس..."⁽¹⁾. ممّا جعل (جواد علي) يشغل عليه ضمن البحث في سيرة ابن إسحاق وذكر عدد الأحاديث التي نسبت إليه (1660 حديث) والتي أخرج منها البخاري ومسلم 95 حديث، ثمّ نجده يرد على المستشرق "شيرنكر A. Sprenger" الذي تحامل على ابن عباس فرماه بالكذب والبهتان فاقم هذا المستشرق بالتقصير في البحث والتعمّق مشيراً إلى أنّ هذا التعدّد في الروايات إنّما مرده إلى بعض العوامل السياسيّة. كما نظر في أحوال الرّواة الذين أخذوا عن ابن

عبّاس ويعود مع كلّ واحد منهم إلى الطبري ويستنتق تاريخه ليأخذ منه ما ذكر عنهم، غايته في ذلك مساءلة هذا المؤرخ الرّأوي حول قيمة مورده ومدى قدراته على نقل الحقائق التاريخية، ويقترح لو تجمع الأقوال المروية عن ابن عبّاس في الكتب وفي التفسير المنسوب إليه للبحث في التناقض بينها . ثم يتخلّص بعد ذلك إلى ذكر نفر من الصحابة وردت لهم أقوال في تاريخ الطبري وهم (أبو ذرّ الغفاري، عبد الله بن مسعود، سلمان الفارسي، أبو هريرة، وجابر ابن عبد الله وأنس بن مالك. لكن الخلفاء الراشدين كانت رواياتهم في تاريخ الطبري محدودة وأكثرهم هو علي بن أبي طالب، وبذلك ينهي (حواد علي) الحديث عن موارد الطبري في تاريخ العرب قبل الإسلام لينتقل إلى معالجة مورده في تاريخ الفرس.

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>



السّمات العامّة للتّفسير في العصر الحديث

بقلم: أنور بن خليفة

إنّ الوقوف على الخصائص العامّة لتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث والتّعرف على سماتها أمر ليس بالهين إذ يحتاج إلى دراسة ميدانية تقوم على الجرد والإحصاء، التصنيف والتبويب. والمكتبة العربيّة الإسلاميّة تفتقر - فيما أعلم - إلى مؤلف يفي بهذا الغرض ويحقق الهدف¹. لذلك سأحاول التطرق إلى بعض المعطيات الموضوعيّة التي قد تساعدنا مجتمعة على تحديد أهميّة التّفسير في العصر الرّاهن وضبط منزلتها في إنتاج نوع من المعرفة الدّينية.

ولعلّ ما يميّز التّفسير في هذا العصر هو تلونه بألوان كثيرة إذ اختلفت مناهج المفسّرين تبعاً لاختلاف مشاربهم ومعارفهم فمنهم من توسّع في الوقوف على آيات الأحكام لتوسّع معارفه في الناحية الفقهيّة. ومنهم من كان ضليعا في علوم اللّغة فطغى عليه في تفسيره الطّابع اللّغوي، ومنهم من كان له توسّع في الجانب الأخلاقي² فتعمّق في ذلك أكثر من الجوانب الأخرى...

وبذلك فإنّ التّفسير لم يعد يظهر عليه في هذا العصر ذلك "الطّابع الجاف الذي يصرف النّاس عن هداية القرآن"³ وإنّما ظهر عليه طابع

1 - يمكن الاستفادة بما ذكره "بولس الخوري" في دراسة قيمة عن مراجع الفكر العربي الحاضر "الشرائح والحدائق" رغم أنّها لا تغطّ الموضوع بصفّة مباشرة - معهد الإنماء العربي بيروت 1983.

2 - منيع عبد الحليم محمود "مناهج التفسيرين ط 1 - القاهرة - بيروت 1978.

3 - الذهبي "التفسير والمفسرون" - ج 2 ص 547

آخر تلوّن بلون يكاد يكون جديدا وطارنا على التفسير وهو معالجة التصوص القرآنية معالجة تقوم أولا وقبل كل شيء على إظهار "مواضع الدقة في التعبير القرآني ثم بعد ذلك تصاغ المعاني التي يهدف القرآن إليها في أسلوب شيق أخاذ ثم يطبق النصّ القرآني على ما في الكون من سنن الاجتماع ونظم العمران"¹.

وقد يكون في إظهار أهمّ خصائص التفاسير في العصر الحديث وفي إبراز مظاهر التجديد فيه كشفا عن سمات التفسير في العصر الحديث. وقبل الحديث عن هذه الخصائص وإبراز تنوعها حري بنا أن نقف عند تعريف التفسير.

1- تعريف التفسير:

ذكر صاحب "لسان العرب" الفسر: البيان. فسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالقسم فسرا وفسره أبانه والتفسير مثله... ثم قال الفسر كشف المغطى التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل...². قال تعالى: "وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا"³ أي بيانا وتفصيلا.

وجاء في القاموس "الفسر الإبانة وكشف المغطى كالتفسير والفعل كضرب ونصر"⁴.

1 - ن م ص س

2 - ابن منظور "لسان العرب، مادة فسر ج 6 ص 361 - بيروت دار لسان العرب.

3 - الفرقان الآية 33.

4 - الفيروزبادي "القاموس المحيط" ج 2 ص 110 - دار الفكر بيروت سنة 1306 هـ.

وقال أبو حيان في البحر المحیط "يطلق التفسير أيضا على التعرّية للانطلاق. قال ثعلب تقول فسرت الفرس: عرّيته لينطلق في حصره وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه من الجري"¹.

وجاء في دائرة المعارف الإسلامية تعريفا للتفسير: "تلتقي مادّتا: ف س ر، س ف ر، في معنى الكشف، ثم نرى السّفر الكشف المادّي والظاهر، والفسر الكشف المعنوي والباطن، والتّفعيل منه التفسير كشف المعنى وإبائه"².

ومما تقدّم نتيج أن "التفسير يستعمل لغة في الكشف الحسّي وفي الكشف عن المعاني المعقولة واستعماله في الثاني أكثر من استعماله في الأوّل"³.

والتفسير في الأصل "ليس خاصا بالقرآن الكريم، ولكنّه شاع واشتهر فيه. فإذا أطلق يكون المراد منه بيان المعنى الذي يقصده القرآن الكريم"⁴. أمّا محمّد الطاهر بن عاشور فيقول في تعريفه للتفسير "هو اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن وما يستفاد منها باختصار أو توسع"⁵.

وفي اصطلاح علماء المسلمين يطلق على معنيين:

1- ج 1 ص 13.

2- دائرة المعارف الإسلامية - مج - 5 / ص 348 (مقال التفسير لأمين الحولي).

3- الذهبي - "التفسير والمفسرون" ج 1 المقدمة الطبعة 2 1976 دار الكتب الحديثة.

4- محمد الزرقان "التعريف بالقرآن الحديث" ص 150.

5- محمد الطاهر ابن عاشور "التحرير والتنوير" ج 1 ص 11.

"الأول: علم من علوم الدين يبحث فيه عن تفسير معاني القرآن وإيضاح ما يراد من ألفاظه وعباراته... كما أنه علم يعرف به نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ثم ترتيب مكّيها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومحملها ومفصلها وحلالها وحرامها..."¹.

وقال السيوطي عرفه الزركشي بأنه: "علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه..."².

ورغم تعدّد هذه التعريفات إلا أنها تتفق كلّها على أن "علم التفسير يبحث عن مراد إله تعالى بقدر الطاقة البشرية فهو شامل لكلّ ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد"³.

ولئن اعتبر السيوطي في كتابه "التحبير في علم التفسير"⁴ تعريف أبي حيان أحسن تعريف فإن خير ما يجمع هذه التعاريف كلّها ما ذكره الزرقاني في مناهله حيث يقول "والتفسير في الاصطلاح علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"⁵. وهذا التعريف على إيجاز عبارته جامع مانع يناسب المطلوب من الصياغة في مثل هذا المقام.

1 - البستاني "دائرة المعارف" مج 1 ج 6/ص 170.

2 - ن م س مج 1 ص 13، 14.

3 - الذهبي "التفسير والمفسرون" ج 1 ص 15.

4 - ص 36 ط دار المنار.

5 - محمد عبد العظيم الزرقاني "مناهل العرفان" - الطبعة الفنية المتحدة بالقاهرة ج 2 ص 3.

فكيف كانت خصائصه في العصر الحديث؟

2- خصائص تفاسير القرآن الكريم في العصر الحديث:

يمتاز التفسير في عصرنا الحاضر بجملة من الخصائص يمكن ضبطها كما أشار إلى ذلك واضعا كتاب "تفسير القرآن في العصر الحديث"¹ في:

أ- التنوع:

خاصية التنوع تلخص بالأساس في الاختلافات الشكلية بين التفاسير في العصر الحديث إذ نجد منها المطول مثل "التحرير والتنوير" لمحمد الطاهر بن عاشور² و"التفسير المنير" لوهبة الزحيلي³. ونجد الأقل طولاً مثل تفسير المراغي⁴ ومتوسط الحجم مثل "صفوة التفاسير" لمحمد بن علي الصابوني ومنها المفرق في الإنجاز، مثل "التفسير المبين" لمحمد جواد معنية و"المصحف المفسر" لمحمد فريد وحدي.

ولعلّ الدافع لهذا التنوع هو اختلاف أفق انتظار الشرائح المختلفة من المتلقين⁵ إضافة إلى تطور المعارف وتنوعها وصراعاها من أجل فرض نسقها المعرفي...

ورغم أنّه لم تتوفر أية دراسة إحصائية سوسيولوجية تطلعنّا على أيّ أنواع التفاسير أكثر تأثيراً وانتشاراً فإنّ ما يلاحظ بين أغلب هذه التفاسير من تشابه في المنهج والمضمون قد يدفع إلى الإقرار بأنّ هذه

1 - حافظ قوبعة ومحمد حمزة سلسلة دراسات (1) المركز القومي للبيداغوجي (دت).

2 - صدر عن الدار التونسية للنشر تونس 1984 في 15 مجلدا.

3 - دار الفكر المعاصر بيروت ط 1 1991 في 32 جزء.

4 - دار إحياء التراث العربي بيروت ط 3 1974 في 28 جزء.

5 - حافظ قوبعة ومحمد حمزة "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 11.

الخاصية هي مجرد استمرار لسنة قديمة في التأليف تنوعى التدرج في التأليف من التوسع إلى الاختصار إذ نجد "المحيط" و"الوسيط" ونجد "الوجيز".

وقد توجد اختلافات أخرى عديدة كأن يكفي المفسر بتفسير بعض السور¹ أو بعض الآيات من سور مختلفة مثل الشيخ محمد الخضر حسين أو يقوم بتفسير سورة واحدة تطبيقاً لمنهج جديد في القراءة مثل محمد أركون في "Lecture de la fatiha in lectures de coran - Maisonneuve - Larose - Paris 1982" أو يدرس مجموعة من السور والآيات ضمن إشكالية معينة مثل محمد أحمد خلف الله في "الفن القصصي في القرآن الكريم"².

وبذلك فإن هذا التنوع في التفاسير وخاصة منها المجموعة الثانية والتي يمكن أن نسميها تفاسير جزئية تنوفر على قدر أكبر من الإضافة والتجديد³ دون التغافل عما أحدثه تفسير المنار⁴ من خلخلة وتجديد اعتباراً لخصوصية الفترة التي ظهر فيها.

ب- التبسيط:

- 1 - شوقي ضيف - "سورة الرحمان" وسور قصار دار المعارف مصر ط 2 - 1982.
- عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ "التفسير البياني للقرآن" دار المعارف مصر ط 3 1968.
- 2 - مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط 4 - 1972.
- 3 - حافظ فورية ومحمد حمزة "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 11.
- 4 - تفسير يبدأ محمد عبده وأكملة تلميذه رشيد رضا وأساس هذا التفسير كان الدروس التي ألقاها الشيخ محمد عبده في الأزهر من 1899 إلى 1905 وفسر فيها سورة الفاتحة والبقرة وآل عمران والنساء حتى الآية 125 فشر تلميذه رشيد رضا تباعاً في مجلة "المنار" ما قيده عن أستاذه عبد المجيد الشريفي "الإسلام والحداثة" الدار التونسية للنشر 1990 ص 65.

إنَّ المتَّبِعَ لمسيرة التَّفاسير في العصر الحديث يقف دون عناء على أنَّ الإمام محمَّد عبده وتلميذه رشيد رضا هما اللذان دشنا هذا التَّوجه نحو التَّبسيط ورأسياً بعض قواعده عملياً في تفسيرهما بحيث يكون "مراعى في السَّهولة في التَّعبير محتنباً مزج الكلام باصطلاحات العلوم والفنون بحيث يفهمه العامَّة ولا يستغنى عنه الخاصَّة"¹.

وهاجس التَّبسيط حاضر في كلِّ التَّفاسير الحديثة إذ كثيراً ما يفصح عنه المفسِّر في مقدِّماته بشكل واضح أو في اختيار العناوين وهو ما يظهر وعي المفسِّر بضرورة الوصول إلى وجدان القارئ. وذلك يأتباع لغة سهلة خالية من تعقيدات القدامى وتجنب الخوض في المسائل الكلامية² والكفَّ عن رواية الأسرائيليات... يقول وهبة الزَّحيلي "وهذا الكتاب اصطفي فيه من العلوم والمعارف والثقافات بعيدة عن الدَّخيل كالإسرائيليات في التفسير"³ ويصرِّح أحمد مصطفى المراغي "رأينا ميسس الحاجة إلى وضع تفسير للكتاب العزيز يشاكل حاجة الناس في عصرنا في أسلوبه وطريقة وصفه ووضعه ويكون داني القطوف سهل المأخذ يحوي ما تطمئن إليه النفس..."⁴.

1 - رشيد رضا "تفسير القرآن الكريم" الشهير بتفسير المنار دار المعرفة بيروت ط 1973 ص 1

2 - مثل الرؤية القضاء والقدر الاستواء والعرش...

3 - وهبة الزَّحيلي "مقدمة التفسير المنير" - ج 1 ص 5.

4 - أحمد مصطفى المراغي في مقدمة تفسيره - ص 3.

ويؤكد صاحب "صفوة التفاسير" نفس الهاجس بقوله "من واجب العلماء اليوم أن يبذلوا جهدهم لتيسير فهمه على الناس بأسلوب واضح وبيان ناصح لا حشو فيه ولا تعقيد ولا تكلف..."¹.

وعليه فإن المفسرين في العصر الحديث قد عملوا على جعل تفاسيرهم متفقة وروح العصر الحديث تلبي حاجة الشباب المثقف المتعطش إلى التزود من علوم القرآن ومعارفه. فالمسلم اليوم كما أكد على ذلك صاحب "صفوة التفاسير" "قد اضطرت له الدنيا ليشغل وقته في تحصيل معاشه وضاعت أيامه عن الرجوع إلى التفاسير الكبيرة..."² وهو في حاجة أكثر من أي وقت مضى إلى تفسير "سهل المأخذ يحوى ما تطمئن إليه النفس"³. ومما يلاحظ أن خاصية التبسيط هي من مقتضيات الحداثة ومتطلبات العصر الراهن وليس توجهها حراً لدى المفسرين في العصر الحديث الذين كان لهم وعي تعليمي قوي أبرهنوا عليه بكفاءة عالية يشهد عليها توفيقهم إلى اختيار العبارة العربية الأصلية السهلة⁴.

والمفسرون القدامى كانوا يكتبون تفاسيرهم إلى الخاصة لأنهم يعرفون أن "الناس في العلم طبقات"⁵ وأن "بحر المحيط" و"مفاتيح الغيب" و"الكشاف"⁶ ليست من شأن العامة وغير المتضلعين في العلوم الدينية. أما المفسر في العصر الحديث فهو يكتب إلى الناس جميعاً بحكم انتشار

1 - محمد علي الصابوني في مقدمة تفسيره ص 20.

2 - ن م ص

3 - أحمد مصطفى المراغي في مقدمة تفسيره ص 3.

4 - حافظ قوبعة ومحمد حمزة "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 3.

5 - محمد بن إدريس الشافعي - الرسالة - دار الفكر تحقيق أحمد محمد شاكر - 1309 هـ - ص 19.

6 - الأول لأبي حيان الأندلسي والثاني لفخر الدين الرازي والثالث للزمخشري.

التعليم وانخفاض نسبة الأمية وترسيخ الوعي بأن العلم حق للجميع إضافة إلى تغيير خصائص المخاطبين مع حرص المفسر على توظيف عمله لأهداف "إصلاحية نفعية مباشرة آتت أكلها بصفة جزئية... في تغيير العقليات والتخلص من كثير من مظاهر التقليد"¹.

وفي اعتقادي أن مرور التبسيط هذا قد ساهم دون وعي مفسري العصر الحديث في الحد من الإضافة وتطوير التفسير وتحديد آلياته فتصبح الغاية أقرب إلى المنفعة الفردية... منها إلى النفعية الإصلاحية العامة ويتجاهل مفسر العصر الحديث إنجازات المفسر السابق لتصبح جميع التفاسير نسخا شبه مطابقة لبعضها البعض تحت عناوين مختلفة.

ج- الوفرة:

ساهمت "محورية النص القرآني في الثقافة العربية الإسلامية قديما وحديثا"² في ظهور العديد من التفاسير على مر العصور القديمة والحديثة وإذا أخذنا بعين الاعتبار قيمة هذا النص بما "يكتنف محموله الدلالي من قداسة وبما يتوفر عليه من تأثير في رأس المال الرمزي للمجتمعات العربية الإسلامية"³. وأضفنا إلى ذلك العامل الذاتي التقوى "المتمثل في سعي المفسر إلى نيل الثواب بالتأليف في التفسير"⁴ لقول الرسول صلى الله

1 - عبد الحميد الشري - الإسلام والحداثة - ص 69.

2 - د م س ص 63.

3 - حافظ قوبعة، محمد حمزة "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 10

4 - هامش 9 - كتاب "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 43.

عليه وسلّم "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"¹، هذا دون التغافل عن مصلحة مادية أو إيديولوجية في إضافة تفسير إلى التفاسير الموجودة إضافة إلى ظهور الطباعة وتطورها في العالم الإسلامي، إذا أخذنا بعين الاعتبار كلّ هذا الذي ذكرنا يمكننا أن نقول، مطمئنين إلى ما سلف، أنّ تفاسير القرآن في العصر الحديث كثيرة جداً بل إنّ صدورها في مجلّدات كثيرة² ونسق سريع يترجم ما ذهبنإ إليه ويدفعنا إلى التساؤل عن الأسباب الكامنة وراء هذه الظاهرة وعن دلالة سعة التلقي لهذا النوع المخصوص من الإنتاج المعرفي في مجتمعات تكسحها الحداثة المادية بقوة وتفعل فيها وسائل الإعلام فعلها الجارف".

وبذلك يتبيّن لنا أنّ التفاسير القرآنية في العصر الحديث قد طبعت بسمات التنوّع والتبسيط والوفرة فكانت استجابة لمتطلّبات العصر من جهة وبعض الاعتبارات المتعلقة بالمصالح الضيقة ذات الصلة الوثيقة بالماضي من جهة أخرى. لكن السؤال الذي يبقى قائماً هو: هل استجابت هذه التفاسير لبعض متطلبات الحداثة وخصائص العصر الحديث؟ وهل استحباب التفسير القرآني في العصر الحديث إلى شروط الحداثة بما هي قطيعة "ابستمية العصر الكلاسيكي وتجاوز علمي لها؟"³

1 - رواء البخاري - كتاب فضائل القرآن ونظر ابن حجر العسقلاني "فتح الباري" - المطبعة البهية المصرية - القاهرة 1354 هـ - ج 9 ص 61

2 - على سبيل المثال وصل تفسير القرآن الكريم لعمود شلتوت إلى طبعته الحادية عشرة سنة 1988. و وصل "التفسير الواضح" لعمود حجازي إلى الطبعة السادسة سنة 1969 أما تفسير السيد قطب: "في ظلال القرآن" فقد تجاوز الطبعة الثانية عشرة منذ سنة 1986.

3 - حافظ قوبعة، محمد حمزة "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 14.

إن الإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها يفرض علينا تبيان مظاهر التقليد والتحديد في التفاسير الحديثة.

ورغم تداخل مظاهر التقليد والتحديد في خطاب التفسير في العصر الحديث فإنني سأحاول الفصل بينهما تيسيراً للقارئ وحثاً على التشجيع لتوسيع آفاق البحث في هذه المسألة التي تقتضي أكثر تعمقاً وتوسّعاً يتجاوز حدود هذا العمل ويتطلب دراسة مستقلة تبقى تنتظر من يكشف الحجب عنها.

3- مظاهر التقليد في تفاسير القرآن الكريم في العصر الحديث:

إذا ما قسمنا مظاهر التقليد عند المحدثين للقداامي إلى تقليد في مستوى المنهج وآخر في المضامين فإنه حري بنا أن ننبّه إلى كون المناهج التي توخاها المحدثون في تفسيرهم للقرآن الكريم هي إمتداد لما اعتمده القداامي إما في التحزرة أو الخطبة.

أما التحزرة فتمثّل في النسج على منوال القداامي باعتبار أن الآية هي الوحدة المعنوية الأساسية في السورة فيعمد المفسر إلى تفسير الآية تلو الآية حسب موقعها من السورة. وفي مستوى أعمّ عمل المحدثون على مجارة القداامي في تفسير السور حسب ترتيبها في المصحف (من الفاتحة إلى البقرة إلى آل عمران وصولاً إلى سورة الناس) أي إخضاع التفسير إلى ترتيب التلاوة لا إلى ترتيب النزول.

والملاحظ أنه لم يشذ عن هذه القاعدة من أصحاب التفاسير المطوّلة سوى صاحب "التفسير الحديث" محمد عزّة دروزة الذي ذهب إلى أبعد من ذلك حيث تجاوز المبدأ القائم على محورية الآية "فاعتمد تحزرة

المجموعات والفصول إلى جمل تامة يصح الوقوف عندها من حيث المعنى والتّظيم والسّياق وقد تكون الجملة آية واحدة أو آيات قليلة أو سلسلة طويلة من الآيات¹.

أمّا الخطيّة فتتمثّل في التفسير انطلاقاً من بداية السّورة إلى نهايتها تدريجيّاً من المفردة إلى التركيب إلى الجملة ثمّ إلى الجملة الموالية على نفس النسق عامّة دونما عودة ضرورة إلى الوراء أو قفزة إلى الأمام. وقد يكون "من اللامفكر فيه أن يبدأ المفسّر من وسط السّورة أو آخرها"².

ويذهب محمّد عزة دروزة إلى أنّه لا يمكن تجاوز المزالق التي وقع فيها المفسرون القدامى والمحدثون إلّا بتجاوز المنهج الخطي التحريضي وهو واع بأن كثيراً من الخلافات الكلاميّة حول بعض الآيات كان يمكن تجاوزها لو اعتمد السّياق إذ يقول "إن أكثر الفصول والمجموعات في السّور القرآنية متصلة السّياق... وإن فهم مداها ومعانيها... فهمها صحيحاً لا يتيسر إلّا بملاحظة السّياق والتناسب وإنّ في أخذ القرآن آية أو عبارة أو كلمة كلمة بترأ لوحدة السّياق في كثير من المواقف والمواضيع وهو مؤدّ إلى التشويش على صحّة التفهم والتدبّر والإحاطة أو على حقيقة ومدى الهدف القرآني"³.

ولا شك أنّ هذه الدّعوة الصريحة إلى التركيز على السّياق تساعد على تجاوز الكثير من الإشكاليات الزائفة وهي أيضاً تزيد المستمعين في

1 - عبد المجيد الحبّيب "إنجازات التفسير في العصر الراهن" مكتبة النهضة الإسلاميّة ط 2 1980 ص -

55.

2 - حافظ قوبعة محمد حمزة "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 26.

3 - محمد عزة دروزة "القرآن المجيد" المكتبة العصرية بيروت (د ت) ص 199.

القرآن الكريم تعمّقا في فهم آياته لكن يبقى الخطّ العام للتفسير الحديثة يسير دائما في اتجاه شرح السّورة آية آية.

وإذا ما تجاوزنا المناهج التي توخّأها المحدثون في تفسيرهم للقرآن الكريم وأمنا النظر في المضامين فإنّ أوّل ما نلاحظه وخاصّة في أغلب المقدّمات التي وضعوها لتفسيرهم هو الحرص على الإعلان عن استفادته من التفسير القديمة المشهورة وعلى طمأنة القارئ بكونه أتقى من أن يتناول على أصحابها أو يستنقص جهودهم أو يهدم ما بنوه. يقول محمّد عليّ الصّابوني متحدّثا عن تفسيره "ما كنت أكتب شيئا حتى أقرأ ما كتبه المفسّرون في كتب التفسير الموثوقة مع التحري الدقيق لأصحّ الأقوال وأرجحها"¹ ويصرّح وهبة الزحيلي بتوجيه نفس الطّريقة "فإنّه سيكون تفسير الجمع بين المأثور والمعقول مستمدا من أوثق التفسير القديمة والحديثة"²

<http://Archivebeta.Sakh>

وقد سعى محمّد الطاهر بن عاشور إلى طمأنة قارئ تفسيره معبرا عن موقف معتدل من خلال قوله في شأن تعامله مع آراء القدماء: "نعمد إلى ما أشاده الأقدمون فنهذه ونزيده وحاشا أن ننقضه أو نبيده"³. والدّارس لمثون التفسير المعاصرة يلاحظ أنّ أصحابها قد صدقوا وعدهم فيما عاهدوا عليه القارئ من وفاء للتفسير القديمة. إذ لا تكاد تخلو صفحة من إحالة على الطّبري أو القرطبي أو الرّازي أو ابن كثير...

1 - محمّد عليّ الصّابوني "صفوة التفسير" ص 20.

2 - وهبة الزحيلي - "التفسير المنير" ص 8.

3 - الطاهر بن عاشور "التحرير والتنوير" ج 1 ص 7.

وهي إحالات لها "وظيفة إقناعية في تثبيت معنى أو إزاحة تأويل"¹ إضافة إلى أنها تزيد القارئ شعورا بالسّلامة والطمأنينة وتمنحه شعيرة للاجتهاد فيما لم يجتهد بشأنه القدامى.

ولعلّ الوقوف على مثال واحد فيه من الوضوح ما يغني عن المزيد في التبعيّة والتقليد فماذا أضافت التفسير الحديثة إلى التفسير القديمة في فهمها للآية (34) من سورة النساء "الرّجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم"².

والمتممّن في هذه التفسير يصل دون عناء إلى حقيقة مفادها تكرار هذه التفسير ما أورده المفسّرون القدامى حرفياً في شأن القوامه ودواعي الضرب وكيفيته فضلاً عن مشروعيته³.

وحكم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور على التفسير السائدة في العصر الحديث بأنها "عالة على كلام سابق لا حظ لمؤلفه إلاّ الجمع على تفاوت بين اختصار وتطويل"⁴ يدعم ما ذهبنا إليه وهو "ما ينسحب على "التحرير والتنوير" أيضاً بصفة خاصّة"⁵.

ومن مظاهر التقليد أيضاً في التفسير الحديثة الالتجاء إلى أسباب النزول والمناسبات إذ لا يخلو تفسير من ذلك. ورغم أنه لا يختلف اثنان

1 - حافظ قوبعة، محمد حمزة "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 22.

2 - أنظر - "تفسير المنار" ج 5 من ص 67 إلى ص 75 - "التحرير والتنوير" ج 3 ص 38 - 39 - 40 - "صفوة التفسير" مج 1 ص 274 - "التفسير المنير" ج 5 ص 57.

3 - أنظر على سبيل المثال "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" - دار الكتب العلمية ط 1 بيروت 1988 مج 1

ص 213 - ناصر الدين البيضاوي / روح المعاني للأخوس - ج 21 ص 12 إلى ص 20.

4 - ابن عاشور "التحرير والتنوير" ج 1 ص 7.

5 - عبد الحميد الشرفي "الإسلام والحداثة" ص 85.

في أهمية الاعتماد على أسباب النزول واستحضار بعض الأحداث، مما يساعد على الإلمام بالسياق إلا أن جلّ المفسرين المحدثين قد نقلوا تلك الأسباب من المفسرين القدامى دون نقد جاد لما ورد فيها سندا ومتنا فضلا عن عدم انسجامها أحيانا أخرى مع السياق. إذ نجدهم يعيدون كتابة تلك الأسباب بتناقضاتها وقد نبّه إلى ذلك محمد عزّة دروزة وعقد فصلا يعيب فيه على المفسرين عدم تمحيصهم لروايات أسباب النزول مستعرضا بعض الأمثلة¹.

وكذلك من مظاهر التقليد البارزة في التفاسير الحديثة كثرة الاستشهاد بالأحاديث النبوية على اختلاف أنواعها وهم يحلون على بعض الأحاديث لترجيح رأي على آخر أو لإعادة التذكير، بما كان بين القدامى من اختلاف فضلا عن كون الكثير من الأحاديث المستشهد بها للحسم في قضايا غيبية واجتماعية هي أحاديث الآحاد ولم يجرأ على تجاوز حديث الآحاد بشكل واضح في التفسير سوى الإمام محمد عبده².

وهكذا يتبين بوضوح أن جلّ المفسرين المحدثين قد عولوا على التفاسير القديمة سواء بإتباع المنهج الخطي التحريضي أو تكرار مضامينها والتسج على منوالها بوعي أو بدون وعي مما جعلهم يستحضرون

1 - خلال تفسير الآية 25 من سورة الأنفال / 23 الزمر / وخاصة الآية 53 النساء راجع ما قاله ... ص 222.

2 - للإشارة فإن حجة حديث الآحاد كانت في البداية اجتهد انتهى إليه الشافعي في الرسالة ثم استعملت مسلسلة في حلّ الدراسات الفقهية والأصلية وفي معظم كتب التفسير - أنظر "محمد بن إدريس الشافعي أصولا بين الإتياع والإبداع" مجلة الاجتهاد" السنة 3 العددان 10-11 دار الاجتهاد بيروت 1991.

إشكاليات ليست من مشاغل المسلم في العصر الحديث إضافة إلى الخوض فيها انطلاقاً من مسلمة معرفية كلاسيكية تجعلنا نقرر بأن تفسير القرآن في العصر الراهن "لم يندرج بعد في فضاء الحداثة"¹ باعتبار أن التقدم المعرفي والثورات التقنية والعلمية قد فرضت أسئلة جديدة مخرجة للمفسرين خاصة الذين عملوا على تقديم أجوبة عن بعضها وسكتوا عن البعض الآخر مما سمح لبعض منهم باستحداث طرق غير معهودة في استنطاق النص القرآني وتطوير المناهج وربما الجمع بينها مما يمكن إدراجه ضمن مظاهر التجديد في التفسير في العصر الراهن.

فماهي مظاهر التجديد في التفاسير في العصر الحديث؟

4- مظاهر التجديد في تفاسير القرآن الكريم في العصر الحديث:

تضمنت التفاسير في العصر الحديث العديد من مظاهر التجديد والإضافة على مستوى المنهج خاصة في منعي جل المفسرين إلى تجاوز الخطية في التفسير أو على الأقل الحد من نقائصها وذلك بإقرار الوحدة الموضوعية للسورة.

وإذ فهمنا التجديد في معناه الواسع يمكن التمييز بين ثلاثة اتجاهات كبرى في تفسير القرآن في العصر الحديث تترجم بوضوح مظاهر التجديد.

الاتجاه الأول: التفسير العلمي: فهو تفسير يقوم على القول بأن القرآن يحوي كل الأسرار العلمية التي تم الكشف عنها حديثاً والتي سيكشف عنها مستقبلاً، إذ يقوم المفسر بتأويل كل الآيات التي تذكر

1 - حافظ قوبعة ومحمد حمزة "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 29.

فيها عناصر الطَّبِيعَةِ وقوانينها العامَّة في اتجاه تأكيد تلك الحقيقة ويعتبر "الجواهر في تفسير القرآن الكريم" الطنطاوي جوهرى¹ أبرز التماذج الممثلة له وقد سار على نهجه عدد كبير من المفسرين والدارسين للقرآن².

والملاحظ أنه على الرغم من الإحترازاات الكثيرة من العلماء على هذا النوع من التفسير إلا أنه حظي باهتمام كبير في العصر الحديث لدى عامَّة القراء³.

الاتجاه الثاني: وهو ما اصطلح عليه التفسير البياني الذي وضع قواعده أمين الخولي⁴ وطبقته عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ وشوقي ضيف واستفاد من بعض إيجابياته مفسرون آخرون بنسب متفاوتة. وقد تكون أهم ميزة لهذا الاتجاه هي العمل على إبراز بلاغة النص القرآني. فرغم أنه ليس بالأمر الجديد باعتبار أن القدماء قد أسهموا فيه بشكل كبير. فإن "إعمال النظر في بيان القرآن الكريم اعتمادا على فوائده الدرس الأدبي ساعد أصحاب هذا التفسير على تحقيق إضافة يمكن

1 - عاش بين (1870 - 1940) اشتغل بالتفسير والعلوم الحديث ولد في قرية الشرقية بمصر وتعلم في الأزهر ثم المدرسة الحكومية من مؤلفاته "الجواهر في تفسير القرآن الكريم" في 26 ج نفا فيه منحى خاصا و"جواهر العلوم" "نظام العالم والأمم" ... الأعلام ج 3 ص 333.

2 - مثل عبد الله فكري، عبد الرزاق نوفل محمد توفيق صدقي، مصطفى محمود... عن هذه التفاسير انظر - "التفسير والمفسرون" محمد حسين الذهبي ج 2 من ص 497 إلى 518. - هند شلي - "التفسير العلمي للقرآن الكريم بين النظريات والتطبيقات" - مطبعة تونس قرطاج ط 1 1985.

3 - لمزيد الوقوف على بعض مظاهر الإعجاز العلمي الموجود في القرآن - انظر "التفسير والمفسرون" ج 2 ص 512.

4 - لمزيد الوقوف على بعض مظاهر الإعجاز العلمي الموجود في القرآن - انظر "التفسير والمفسرون" ج 2 ص 512.

استثمارها في دراسات أوسع وأعمق"¹. وتمثّل هذه الإضافة بالأساس في السيّاق القرآني ككلّ لا في وضع المفردة في سياق السّورة فقط ممّا يساعد على فهمها ضمن حقل دلالي معيّن.

الاتجاه الثالث: وهو التفسير الذّي يتّخذ من الآيات القرآنية منطلقاً لإبراز جاهليّة القرن العشرين على جميع المستويات والحثّ على تقويضها بالعودة إلى ما أنزل في الكتاب من أحكام وتوجيهات وهو ما يسمّى "بالتفسير السياسي" ويمثّل هذا الاتجاه بجلاء "في ظلال القرآن" لسيد قطب.

الملاحظ في هذا التفسير أن صاحبه يكثر من الاستطراد حتى نعتيه البعض باللاتفسير لذلك لم تظهر نماذج مماثلة له². وربما كان لسان حال المنكرين لهذا الطّرب من التفسير يرّد ما قاله الفاضل بن عاشور عن مفاتيح الغيب للفخر الرازي حيث ذكر في معرض حديثه عنه أنّه "متاب جعله صاحبه للتفسير وفيه كل شيء عدا التفسير". ولكنّ كلام ابن عاشور فيه كناية عن الوفرة والموسوعيّة لا على السطحيّة والوهن والضعف والخروج على المنهج جرياً على عادى القدماء في "الأخذ من كل شيء بطرف" على حد عبارة الجاحظ.

ويعتبر الإمام محمّد عبده وتلميذه محمّد رشيد رضا رائدي التّحديد في تفسير القرآن في العصر الحديث. فقد حظي "تفسير المنار" باهتمام

1 - أنظر كتابه "التفسير - نشأته تدرجه تطوّره - دار الكتاب اللبناني بيروت ط 1 1982.

2 - باستثناء البعض من المفسرين الذين يحاولون تمرير بعض المواقف السياسية الحادة دون تحليل انظر محمد جواد مغنّية "التفسير المبين" ص 121 وما ذكره حول الآية 50 من سورة البقرة.

منقطع النظر يظهر في نسج التفاسير اللاحقة على منواله¹ واستفادة جلّ المفسرين منه صرحوا بذلك أم لم يصرحوا كما يظهر في كثرة الدّراسات الأكاديمية التي اهتمت به وغيرها مما كان له اتصال من قريب أو من بعيد بهذا التفسير. وقد تميّز تفسير المنار عن التفاسير التي سبقته بتغيير زاوية النظر إلى القرآن وتفسيره. ونلاحظ ذلك من خلال قوله "والتفسير الذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدّنيا وحياتهم الآخرة"².

يقوم المنهج الذي توخاه محمد عبده ورشيد رضا في تفسيرهما للقرآن الكريم على أسس عديدة نذكر منها: "اعتبار المورة وحدة متناسقة" حيث كانت فكرة التناسق بين الآيات المتجاورة تسيطر عليه في تفسيره³ وكذلك ترك التقليد وإعمال النظر واستخدام المنهج العلمي في البحث والاستنباط باعتبار أن القرآن حافل بآيات تدعو الإنسان إلى النظر في الكون وتدبر آياته وعجائبه بواسطة العقل وكذلك ترك الإطناب في الكلام عما ورد في القرآن بصورة مبهمة فالقرآن كتاب هداية يذكر من الأخبار والحوادث وأحوال السّابقين ما يحقّق هذه الهداية ويمسك عمّا لا فائدة من ذكره⁴، وبذلك استطاع محمد عبده

1 - سأطرق إلى ذلك أثناء الحديث عن تأثير هذه المدرسة في التفسير والمفسرين.

2 - تفسير المنار ج 1 ص 17.

3 - عبد الله محمود شحاتة "منهج الإمام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم" مطبعة جامعة القاهرة سنة 1984 ص 35.

4 - لمزيد الوقوف على الأسس التي قام عليها منهج محمد عبده في تفسير القرآن الكريم انظر - "منهج محمد عبده في تفسير القرآن الكريم" لعبد الله محمود شحاتة.

ومن بعده رشيد رضا وضع مدرسة في الإصلاح الديني عموما وتفسير القرآن على وجه الخصوص كما "أمكنهما تجريد تفسير القرآن من كثير من الشوائب التي علفت به فكان تفسيره فتحا جديدا في عالم التفسير ومرحلة من مراحل تطوره"¹.

واستثناسا بما ذكرنا نرى أنّ مركز الاهتمام في التفسير لم يعد إبراز وجوه البلاغة في القرآن أو استخراج ما تضمنه من إشارات علمية أو تفاصيل غيبية وأخبار تاريخية على غير ذلك مما أطل فيه المفسرون القدامى بل "الذهاب إلى فهم المراد من القول وحكمة التشريع في العقائد والأحكام على الوجه الذي يجذب الأرواح ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله تعالى "هدى ورحمة" ونحوها من الأوصاف"² ولا شك أنّ هذا التجديد في النظر إلى القرآن مرتبط بماحس الإصلاح لدى الشيخين محمد عبده ورشيد رضا وهما قبل كلّ شيء "مصلحان يوظفان التفسير لتغيير ما ترسّخ في عقول الناس من أفكار عساهما بذلك يساعداهم على الترقّي والتعدّن الخروج من التخلف"³ وبذلك يمكن اعتبار التفسير عندهما وسيلة لا غاية.

وهكذا نلاحظ أنّ التفاسير في العصر الحديث لا تخلو من محاولات جادة في إتجاه التجديد والتحديث ويتجلّى ذلك بالخصوص في ما يتوفّر عليه من جرأة في الاجتهاد وإعمال للرأي فيما يمكن "أن نعتبره ثمّردا

1 - عبد الله محمود شحاته "منهج محمد عبده في تفسير القرآن الكريم" ص 195.

2 - ن م س ج 1 ص 25.

3 - حافظ قوبعة محمد حمزة "تفسير القرآن في العصر الحديث" ص 30.

على سلطة النموذج في التفسير القديم"¹. والملاحظ أن جميع التفاسير في العصر الحديث تبقى في رأينا محدودة الأفق وبعيدة عن التجاوز الفعلي لخطاب التفسير القديم ذلك أن أغلبها وظفت القرآن لأغراض تخرج في الحقيقة عن الهدف الموضوعي له. والتوظيف يعني تحويل النص القرآني ومضامينه لخدمة غايات أخرى مثل توظيفه للإصلاح الاجتماعي مع مدرسة المنار والتمجيد الحداثي مع "الجواهر" ... وهو في كل الحالات يعيق تطور التفسير موضوعا ومنهجيا بما هو مجال معرفي أحدث للخدمة الحضارة الإسلامية.

وعلى هذا الأساس فإن مفسر القرآن في العصر الحديث وخطابه المعرفي يندرج ضمن بنية سحائية محكوم عليها بمواجهة سلطة النموذج القديمة بمناهجه ومقولاته من جهة والرغبة الجامحة في التهوض والتجديد وتحقيق التطور والتقدم من جهة ثانية مما ييشتر ببعض المحاولات التفسيرية المتحيزة نحو التجديد الجذري والتي تسعى جاهدة إلى تجاوز المحاولات السابقة لتفتح آفاقا غير معهودة في استنطاق النص القرآني مع إخلاص النية في تدعيم العمل نحو مزيد الانفتاح على علوم العصر دون خوف مفرط على الإسلام والمسلمين لأن ما ينفع الناس يمكنه في الأرض. كل ذلك بغاية إيجاد قراءة مقاصدية تفضي حتما إلى تدعيم مقولة صلوحية القرآن لكل زمان ومكان دون الخروج عن أحكام الدين وجعل خطابه سبحانه وتعالى مواكبا لتطور العصر ومتطلبات الحضارة الجديدة.

متعة القراءة

تأليف: مجموعة من الكتاب

عرض / حواس محمود

يعتبر هذا الكتاب الصادر في سوربة (والذي شارك فيه مجموعة من الكتاب المعاصرين والقدامى) جهدا معرفيا بغاية تبيان القيم الثقافية للكتب والمؤلفات وفيه اشراقات واضاءات عديدة لفهم كنه العلمة الثقافية، عبر التعرف على كنوز الثقافة من خلال الكتب والمؤلفات، الكتاب من تقديم الباحث محمد كامل الخطيب وقد عنون تقديمه بمديح الكتب، يشير فيه إلى انتقال الوسيلة الثقافية من الكتاب إلى التلفاز والانترنت ووسائل تكنولوجيا أخرى عديدة. ويقول إن الكتاب هو اقتراح للنقاش والحوار، ودعوة متحدة للقارئ عبر تجديد قراءته في كل عصر ومع كل شخص، أما ما يعرض في جهاز التلفزيون فهو "درس إملائي" يلقيه الأستاذ على الهواء وبمضي، أنه كلام يزول بانتهاء لحظة إرساله.

بين الكاتب والقارئ:

يقع هذا المقال في قسمين متميزين، حاول الكاتب "رونالد باركر" في أولهما أن يعرض بإيجاز لتطور الكتب وتجارها منذ أقدم العصور، بينما أفرد القسم الثاني لتحديد طبيعة الدور المتخصص الذي يقوم به كل من الناشر والطابع وصاحب المكتبة في بريطانيا، ويشير الكاتب أن التجارب أثبتت له استحالة نجاح شخص واحد في القيام بجميع هذه

المهام المختلفة، وهو رأي يدعمه الاتجاه السائد الآن نحو مزيد من التخصص في عالم الكتاب.

فضل الكتب وبيان منافعها:

هذه المقالة للخطيب البغدادي وهي زاجرة بالأمثلة والحكايات والتجارب والأشعار التي تبين أهمية قيمة الكتب في الارتقاء بالوعي البشري فهاهو يقول - مثلاً - قرأت في كتاب محمد بن عبد الملك النارنجي بخطه حديثي أبو توبة يعني صالح بن محمد بن دراج قال: حدثني الحسن بن سهل قال كان المأمون ينام والدفاتر حول فراشه ينظر فيها متى انتبه من نومه وقبل أن ينام.

ويشار إلى أنه قد جعل بعض الشعراء الكتاب قسماً أقسم به في عره لعظمه عنده، وجلالة قدره فقال فيما أخرنا أبو الحسن محمد بن الحسن بن أحمد الأهوازي، أخرنا أبو محمد بن يحيى الصولي، قال قال أبو الحسن محمد بن أحمد العلوي الأصبهاني:

لا وأنسي وفرحتي بكتاب أنا منه في حسن أضحي وفطر
ما دجا ليل وحشتي قط إلا كنت لي فيه طالعا مثل بدر
بحديث يقيم للأنس شوقا ولثام يكف لوعة صدري

عن التأليف: آرثر شوبنهاور... بحسب شوبنهاور المؤلفون نوعان: نوع من أجل الموضوع الذي يتناوله، ونوع يسود الورق من أجل الكتابة ذاتها، وأولئك الذين يكتبون من أجل الموضوع تكون قد عنت لهم ضروب من الفكر أو مروا بأشكال من التجربة، يجدونها جديرة أن لم يلم الآخرون بها، فالفكر لديهم جزء من صنعة الكتابة ذاتها وهم

أناس لا تخطئهم العين البصيرة، من فرط ميلهم إلى استنفاد الخاطر الذي يعن لهم، والفكرة التي ثمر بأذهانهم في طول سرد ممكن، واعقد قول مستطاع، بل ويعرفون كذلك من طبيعة أفكارهم، وهي أنصاف حقائق تجمع في الخطأ وتأرجح فلا تجد مستقرا لها، وتتضح بالتصنع والافتعال، كما يعرفون من نفورهم الواضح من أن يقولوا قولا صريحا مباشرا، خشية أن تنكشف حقيقة أمرهم، فتعزى كتاباتهم، لذلك من التحديد والوضوح، ولا يطول الأمر بهم قبل أن يكشفوا عن زيفهم، فما يلبث القارئ الفطن أن يتبين أنهم لا يستهدفون، في حقيقة الأمر، إلا تسويد الورق وإراقة المداد، وإن كان هذا مثل يتردى فيه أحيانا، وعن غير قصد، أفضل الكتاب، مثلما تردى "ليسغ" في بعض ما كتب و"جان بول" في الكثير من رواياته الخيالية.

ويشير الكاتب "شوينهاور" إلى أن الخطأ الأكبر يتمثل في اعتقاد الناس أن أحدث ما يصدر من كتب هو أكثرها دقة وصلاحية وأن كتب اليوم، بالضرورة أجدى من كتب الأمس، وأن التغير يعني - دواما - التقدم إلى ما هو أفضل، إلى أن المفكرين الأصلاء ذوي الحكم الصائب على الأمور، الجادين في تناول موضوعاتهم لا يتوافرون في كل عصر وزمان، إنما هم استثناءات من القاعدة، وفي اعتقاد الكاتب أن ذلك الذي ينبغي الدراسة الجادة لموضوع ما، يحسن به أن يحاذر الاندفاع - دون تبصر - وراء كل مستحدث من الكتب، متوهما أن العلم في تقدم، وأن كل جديد مفيد وأن الحديد فوق ما فيه من مستحدث المعرفة، لا بد وأنه يضم المعارف التي تحويها الكتب القديمة،

مما يكون المؤلف الحديث قد استقاه في مجال مبحثه، وضمنه كتابه، وهو ما لا شك أن الحديث فاعله، ولكن بأية طريقة؟ الأغلب الأعم ألا يكون قد كلّف نفسه مشقّة الفهم الكامل لما تحويه تلك الكتب القديمة، وإن كان لا يتورع عن استعمال نفس مصطلحاتها بل ونفس عباراتها، مما يؤدي به إلى التخبط، فيختلط الأمر عليه، وينتهي إلى أن يقول بطريقته الفجة المبتسرة ما قاله السابقون قولاً أفضل وأكثر نضجاً لأنه صدر من واقع إلمامهم الحي بموضوعهم، ولذلك فإن ذلك الكاتب الحديث غالباً ما يستبعد في مجال نسخه أفضل ما في الكتاب المنسوخ منه، ويضيع بذلك أكثر أفكار الكاتب الأصيل عمقا وأحفلها بالمغزى، إذ لا تروق له إلا الفكرة الضحلة الراكدة والقول الذي لا جدوى فيه...

ARCHIVE

رجل الكتاب الواحد: <http://Archivebeta.Sakh>

- اسحاق دزرائيلي - يركز الكاتب "دزرائيلي" على فكرة أساسية تتمثل بضرورة وأهمية التأثير - لكل من يقرأ - بكاتب محدد، والإعجاب به ومحاولة تقليده أو حتى تجاوزه إبداعياً وكتابياً لأن ذلك يحد ذاته سيكون بمثابة البذرة التي ستنتج وتعطي ثماراً يانعة في القادم من الأيام...

يقول الكاتب: أننا نحتاج الآن إلى فن يعلمنا كيف نقرأ الكتب وليس إلى فن يعلمنا كيف لا نقرأها وسيكون ذلك فناً عملياً، ولكن ونحن لا نزال بين هذه الكثرة من الكتب، دعنا نكون "رجل الكتاب الواحد" ونحتفظ بذلك التلاقي الدائم مع الكاتب العظيم الذي نتعاطف

مع طريقة تفكيره، والذي نستطيع دائما أن نحفظ بذاكرتنا بسحر كتابته، أن من الجدير بالملاحظة أن كل كاتب كبير يبدو منحازا لمؤلف يفضلُه عن غيره، ولو كان هؤلاء صندوق من ذهب كالإسكندر الأكبر، لخذوا حذوه ووضعوا فيه الأعمال التي يقدرون أوراقها باستمرار، كنوع من التقديس، ولقد كان ديموشينيس يستمتع بتاريخ ليتو ديدس إلى الحد الذي جعله ينسخه ثماني مرات، كيما يلم إلاما كاملا بأسلوبه، ويألفه كما يجب.

كيف يجب أن يقرأ المرء كتابا؟ - فرجينيا وولف:-

تشير الكاتبة إلى أن النصيحة الوحيدة التي يستطيع أن يقدمها فرد إلى الآخر في موضوع القراءة هي ألا يقبل أي نصيحة في هذا، وأن يتبع غريزته فقط، وأن يستعمل عقله هو، وأن يصل إلى النتائج بنفسه، فإذا ما تم الاتفاق على ذلك، فإن الكاتبة تشعر بأنه لا يخرج من وضع تقدم بعض الأفكار والمقترحات لأنك لن تسمح لها بالحد من ذلك الاستلاب الذي يعتبر أهم الخصائص التي يمكن للقارئ أن يمتلكها.

وتشير الكاتبة أننا في الغالب نجيء إلى الكتب عادة وعقولنا مشتتة غير قادرة على وضوح الرؤية، نطلب من القصص أن يكون صدقا، ومن الشعر أن يكون زيفا ومن الترجمات أن تكون ملقا، ومن التاريخ أن يكون دعما لأفكارنا المسبقة فإذا استطعنا أن نتخلص من كل هذه المفهومات المسبقة فإن ذلك يكون بداية جديدة بالإعجاب، فيجب ألا نملي على مؤلفك بل نحاول أن نضع نفسك في مكانه وتستقص شخصيته، كن زميله المتأمر معه في هذا العمل، لأنك إن سحبت

نفسك وبدأت بالتحفظ والنقد، فإنك تمنع نفسك بذلك من الحصول على أكبر قيمة ممكنة لما تقرأ، ولكنتك إن فتحت عقلك إلى منتهى سعته، فإنك ستجد في صياغة الجمل الأولى وعقد خيوطها، من الإشارات واللمحات التي دقت ورقت إلى حد معه لا تلاحظها، ما يملكك إلى حضرة إنسان يختلف عن أي إنسان آخر، أغرق نفسك في هذا، وتعرف عليه، وستجد أن مؤلفك يعطيك أو يحاول أن يعطيك، شيئا أكثر تحديدا ووضوحا من ذلك بكثير.

فن القراءة والكتابة - لين يوتانج-

يرى "هوانج" أن القراءة الهادفة إلى تنمية سحر الإنسان في مظهره ونكهته في حديثه، هي الطراز الوحيد المقبول، من القراءة، ويجب أن يفسر هذا السحر المظهري على أنه شيء يختلف كثيرا عن الجمال البدني، ويمكن القول أنه ليست ثمة كتب تجب قراءتها كحتمية مطلقة، فرغباتنا الفكرية تنمو كالشجرة أو نسير كالنهر، وطالما كانت لهذه الشجرة فروعها السليمة، فستنمو سليمة، وطالما أن الماء مستمر من ينبوع، فسيظل النهر جاريا، وقد تكون لنفس الكتاب إذا قرأه قارئ واحد في أوقات مختلفة نكهات مختلفة أيضا، فنحن نحس بالمتعة من قراءة كتاب، إذا كنا نعرف مؤلفه شخصا، أو إذا كنا قد رأينا صورته، وقد نحس بنكهة مغايرة لنفس هذا الكتاب، إذا أعدنا قراءته بعد أن تقع القطيعة بيننا وبين مؤلفه.

أما فيما يتعلق بفن الكتابة عند يوتانج فيقول: يعتبر فن الكتابة أوسع بكثير من فن أساليبها، وقد يكون من المفيد للمبتدئ الذي يتطلع إلى

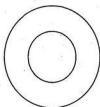
أن يصبح كاتباً أن يبعد عن نفسه أي شعور بالقلق والتخوف من أسلوب الكتابة، وأن يتوقف عن الاهتمام بالقضايا المصطنعة وأن يغوص في أعماق روحه ليبيّن شخصية أو بيئة له، تعتبر أساساً في كل تأليف، وعندما يتم وضع الأساس وتخلق الشخصية يأتي الأسلوب كنتيجة طبيعية، تصلح دقائقه نفسها بنفسها، وليس الأسلوب طريقة أو نظاماً يتبعه الكاتب أو زخرفة لغوية، وإنما هو الانطباع العام الذي يحمله القارئ عن فكر الكاتب وعمقه أو اصطناعه، واستشفافه أو افتقاره إلى هذا الاستشفاف، ويشار إلى أن جودة الكتابة أو رداءتها تعتمد على ما فيها من سحر ونكهة، وليست هناك أية قواعد للسحر، لأنه يتبع من كتابة الإنسان كما يتصاعد الدخان من الغليون، أو كما تصعد السحابة من قمة الجبل، دون أن يعرف الوجهة التي تتجه إليها، وخير الأساليب هو ذاك الذي يشبه "السحب الماخرة في السماء، والمياه الجارية" كأسلوب "سولونجيو".

والأسلوب - بحسب الكاتب - مزيج من اللغة والفكر والشخصية، وهناك أساليب تتألف من اللغة ليس إلا. زاد الشعب: مقالة لطف حسين يقول فيها: إن زاد العب هو القراءة يقبل عليها ويشبع بها جوعه إلى العلم والمعرفة وألوان الحضارة، إن الحث على القراءة خير ما يوجه إلى الأفراد والجماعات في جميع الأمم والشعوب، وفي الشعوب العربية بوجه خاص، بل هو خير ما وجه

إلى الإنسان منذ تحضر إلى الآن، ولقد بدئ تنزيل القرآن الكريم بفعل قصير عظيم هو كلمة "اقرأ" فكان أول ما خاطب به النبي "صلى الله عليه وسلم" وخاطب به الناس من بعده، هو هذا الأمر الكريم بالقراءة.

ويتابع طه حسين فيقول: وما نعرف شيئا يحقق للإنسان تفكيره وتعبيره ومدنيته كالقراءة، فهي تصور التفكير على أنه أصل لكل من يقرأ، وعلى أنه غاية لكل ما يقرأ، فالكاتب يفكر قبل أن كتب وأثناء كتابته، والقارئ يفكر فيما يقرأ أثناء قراءته وبعد أن يقرأ.

هذا ولقد ضم الكتاب مقالة لـ: الكاتب إبراهيم عبد القادر المازني بعنوان بين كتي امتحان النفس، وكذلك مقالة لـ: خورخي لويس بورخيس بعنوان: مكتبة بابل... ونظرا لضيق المجال لم نستطع عرضهما. عموما... الكتاب مفيد وهام وممتع كما جاء في العنوان عن "متعة القراءة" ويعتبر هذا الكتاب مرجعا هاما لشرح وتوضيح وتحليل العملية القرائية والكتابية وكل ما يتعلق بشؤون الكتب والثقافة والكتابة والإبداع... وهو مهم للمتخصص كما للمثقف العام.



وداعا درويش...

بقلم نجاح زقية

لو يذكر الزيتون غارسه

لصار الزيتون دمعا-

محمود درويش

ورد على لسان أبي حيان التوحيدي في كتابه "الإمتاع والمؤانسة" قوله - إن الكلام عن الكلام صعب- ونستشف من خلال موقفه النقدي هذا مدى الصعوبة التي يواجهها الباحثون والنقاد تناولهم لأي اثر أدبي، نثريا كان أم شعريا، والأکید أن حجم الصعوبة التي يواجهها الباحثون والنقاد أثناء تناولهم لأي اثر أدبي، نثريا كان أم شعريا، والأکید أن حجم الصعوبة يكبر كلما اقترنت النصوص المختارة بمدعين كبار من نوعية الشاعر الفلسطيني المعاصر محمود درويش المرتحل مؤخرا بعد أن خاض غمار مسيرة إبداعية وإنسانية خالدة، وترك مخزوننا شعريا غنيا عن التعريف سيظل لأجيال وأجيال معينا لا ينضب لكل عشاق الشعر العربي ارتباطا وثيقا بقضايا الأمة وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.. إذا رحل درويش العرب شاعر الأرض والمقاومة وعاشق البحر والزيتون وكم يصعب على كل المبدعين

في ت=العالم والمؤمنين بقيم الحرية والنضال الوطني المشروع تقبل هذه الفجيجة الكبيرة والخسارة الجسيمة، كما سيظل من الصعب علينا الدخول إلى عرين هذا العملاق لقراءة إبداعاته الشعرية الخالدة عبر الدراسات النقدية والبحوث المعمقة تلك القراءة التعريفية الثاقبة والناجعة. والأکید لن تكون هذه الإطلالة القصيرة على مسيرته الإبداعية سوى لمسة ودّ وامتنان لان الفقيـد الراحل كما هو معلوم قيمة أدبية ووطنية ثابتة في الذاكرة الثقافية العربية ودواوينها الغزيرة تدلّ عليه "أوراق الزيتون- عاشق من فلسطين- العصافير تموت في الجليل- آخر الليل- ورد أقل- مديح الظل العالي- حصار لمذائح البحر.."

والأكید أيضا أن ما يميز شاعرنا الفلسطيني الكبير قدرته على الظفر بقاعدة قراء واسعة النطاق في العالم العربي من المحيط إلى الخليج، وقدرته الفائقة على التعريف بالقضية الفلسطينية في العالم بأسره متخذا من الشعر سلاحا للدفاع عن الأرض والهوية، وله الفضل في الارتقاء بالرؤية الشعرية العربية المعاصرة إلى مرتبة العالمية عن طريق الترجمات التي حظيت بها آثاره ونقلت عديد دواوينه إلى أكثر من عشرين لغة. وتثمينا لهذه الانجازات العظيمة التي قلما وصل إليها شاعر عربي، واعتبارا للمسيرة الإنسانية التي خاضها محمود درويش على مدى سبعة

ستين عاما تراوحت بين معاناة الاحتلال وفجعية النكبة وضراوة المنفى وهاجس البحث عن الهوية وحلم العودة والنضال الوطني على أكثر من صعيد. يسعنا بان الفقيه الراحل سيمثل حيا أبدا في وجدان كل العرب وأحرار العالم وسنظل آثاره المتميزة ومسيزته الإنسانية عصية عن التناول كما لا يمكن لأي كلمات تأيينية مهما كانت منمقة أن توفيه حقه كشاعر عالمي مجدد مقتدر، صاحب مذهب فني متين العماد، ورؤية شعرية واضحة المعالم، وكإنسان مناضل حمل هموم الشعب الفلسطيني. ولا تسعنا بالتالي سوى العودة على الأعقاب لنذكر بما قلناه آنفا- إن الكلام عن الكلام صعب- بل عنه قد يستحيل ضربا من العبث في حضرة فرسان القصيدة العربية قال عنه الشاعر الكبير أدونيس- "بين ضوء الكلام وظلمة الزمن عاش محمود درويش.. كتب الشعر كمثل كيمياء وحول الموت إلى حركة حية وحيثما اغترب أقام عاصمة للأمل جعلنا من الشعر أرضا أخرى وسما أخرى". ومن دواعي اعتزازنا بدرويش نختم بمقطع من إحدى روائع صموده:

لا تكن وجهي تماما

شعر: سامي الديبي

الآن من شغف الصّباح

ومن نومي العميق بلا عمل

من كل أغنية بصوت الأمّ تنعى

آخر الأطفال من فرسائها الشهداء

من جسد الحقيقة عاري المعنى

أتمق وجه وجهي

مثل كل! الناس لا أصواتهم / أحلامهم / أوهامهم

حتى العواطف زيفوها

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

والمبادئ في مكاتب شغلهم

كالعاطلين عن الأمل

الآن أبحث عن سولي وعن سواي

لعلّ لي وجهي القديم

لعلّ في هذا الصّباح أمام مرآتي أرى ذاتي

أراني في ازدحام الوجه، سنبلّة وقنبلة

محمّلة، ملامح قهرها

أشياءها فنّ الغموض

عيونها كنه الغياب أطلّ

وتكحلت بسوادها

كجميلة عربية مسجونة في قصر نبط لا يملّ

ذاتي أنا

الطقس حرّ

والصمت مرّ، كالميت أغنى جولة النسيان.. لم يصرخ بـ "لا"

وجهي وذاتي الصّراع الواقعي الطّبقّي إذ

وجهي هو المرئي يحكم داخلي

ويشدّ أسري الرّوح يخنقهم

- "تلفت" ثمّ قال: أنا أراي وجهك العصريّ

- رمرم ما احتواني، وجهك المرأة

- إني قد أراك فهل تراني

- قلت يا وجهي...

- .. دخلت المسرحيّة؟

- (لم يعد لي فيك أمل)

وجهي كان نايا يعزف

الألحان/ بشر بالقيامة

كان ممتلئ الوجود

يعانق الآيات أسرابا

تسلم هجرة للذاكرة

وتحلّ حافية تفتح

حضنها لامتلاء

كعجوزة نسحت ضفائر

عمرها تترقب المارين

تفتح دمعها من أجل أيّ

إشارة توحى - ولو

كذبا - يعودقم لها / أبناءها السحناء

فكانوا يعبرون الصورة

الشمسية المتعالية

بغبارهم سنكون
ARCHIVE

منتصرين آيتها المدينة
<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

كالفراعة القدامى،

ثم منتصرين على أدوات

زينتنا، ومنكسرين

كالوجه الجميل

وجهي انكسارات

الطبيعة والفراش

وجهي انكسارات المدينة

في السلام

وجهي انكسارات

الحقيقة دائما

وجهي انكسارات

العروبة في الفراش

وجهي قبيلة قلبها/ المرأة

تصرخ عرجي: "يكفي

تعبت ألمع الذكرى

وأفضح عريهم، وأراك

عار مثلهم

وتطوف حولك ذاتك

الثكلى، كأم في النجف

كالماء ينشف في جفون

الدمع أعيته البلاد/ إني

أراك

وأراك - يا وجهي - غرابا

وسط أسراب الجيف

وأركض تمسح هذه المرأة

تطرد سحرها

أتخاف وجهك يا أنا..؟



أتخاف من يكشفُ

جراحك، يفضح كبرياءك

يا وطن

أتخاف من حجر، ومن

طفل يرثل آية الكرسي

في كفن

أمثذنة تخافك (يا غي)

الوجه يسكنه الفراغ

كقصيدة مهجورة

كحبيبة مذعورة من

لدغة للحب يكسرها

الشرف

وأراك يا وجهي ككل

الناس مقهورا

فواصل في هدوئك

لا تكن وجهي تماما- لا

تخنك- (ومال للمرأة يخنقها ليكسرها)

فما انكسرت وما

انتصرت صراعه فكرة



العبي في الفوضى

فلا وجهي يكسر داخلي

والذات المرأة صوت

مبادئي -

صوت الجراح تراك

مهملة في كفن

وتظل يا وجهي تمارس

عادة اليوم الموالي

شاحبا جدا



<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

وأنت تبسم نازفا

في أي وشمة زينة

عربية

فعسى تدل على الوطن

ترجو أسرة المجلة من كافة الإخوة والأخوات
الراغبين في مراسلة المجلة العمل بما يلي:
1/ رغن النص المرسل لضمان مقرونيته
2/ ذكر الاسم واللقب والمستوى الثقافي ورقم الهاتف
والعنوان
ونحن نرحب بكافة المساهمات في تأييث محتوى
المجلة وإثراء مضمونها.

محمود درويش

شعر: عمر الكثراري

صلف الوحوش وثورة وخصام	في وكره المغمور أوقد نبضه
من حبز أمه والجوار صيام	فمشى وأنشد واستعار كلامه
واستقبلته منى طواه لثام	نبذته حيفا في صباه مناديا
لا القلب يخفق لا النداء كلام	واليوم يرقد في التراب مخنطا
إن السبات على الضمير حرام	نامت عيونه والضمائر لم تنم
أن يستكين ويعتريه سقام	أتى لقلب هادر متمرّد
يمشي عليها والكلاب نيام	رحل الشريد وما حوته خريطة
واستغفرت لرحيله الأقلام	نكلته حيفا والضفاف وغزّة
ومنابر الإلقاء ليس تقام	ودفاتر الأشعار أغلق متنها
شأن الأسود مصيرها الإعدام؟	هل مات أو قتل الفقيد بحسرة
مهما نأى تحت التراب مقام	لن يسكت الموت الزؤام هديره
ليفوز يوما بالأريج أنام	فالعطر يكتنم في الصفائح ريحه

هو التراب

بقلم: نزهة الروح زديري

كالليل أطبق واذهم

ولا صباح...

كالضوء في رحم الذبابة،

كاد يقتلها المحاض،

جنينها يلقي الظلام،

بلا صباح...

يموت رغم حدث التكوين،

يلقي نفسه،

تنهشه أصابع

الرياح...

كالليل أطبق واذهم

ولا صباح...

الفجر بين شعاب،

هاتيك المفاوز،

في بطون الليل يحدوه

إلى الغد،

النواخ...



يا قلب آه! يا قلب آه!

الفجر طاح!

الفجر طاح!

يا ويله هذا التراب!

حتى براعمه تنام،

على جبين الجبل،

تحصو لونه ماء..

قراخ.. الفجر طاح!

والنخل طاح!

والشمس في هام السلاحف،

تستمر ولا تدس رؤسها،

تمشي على عجل،

كلما تمشي الذئاب...

كالليل أطبق واذلهم،

ولا صباح..

الشمس أحرقت العمائم

فاستحالت كتلة سوداء غفرا

الرماد..

كأزهار قطن ترامت،

كالضحايا كالجياع،



كتساقط المحصول يحصده،

الجراد..

يا ويلها هذي التلال!

يا ويلها هذي التلال!

قد تاه فيها اليم،

يبحث عن مصب،

بين أعماق،

الوهاد..

فانساب بين شوارد الماضي،

يسأل مومياء الفجر،

أين كنوزها وبرودها؟

أين الجحافل،

والعتاد؟

فتدوس أصداء السؤال،

ثموت من فوح الحنوط،

هناك من غير،

ارتداد..

يا ويلها هذي التلال!

لا تصطف مثل الكرنفال..

لتبيع في أسواقنا ماء،

زلال..
وتظلّ ترغل في وشحات التراب..
ثور من دون
انفعال..
وتفيض ملأ محاسن ظمأى،
بحال..
إلى متى في جوفك التاريخ،
يرمي من،
بطولات،
الرجال..
لكي تفيض ولا تفيض،
ولا تزال..
إلى متى في مهرجان الشمس تمشي،
كالتمال..
وتدير وجهك عن جفون الأمس،
كالليل، استحال..
إلى متى ننصاع، تمشي القهقري؟
كم خافك الصحراء،
تقتل أهرأ؟ .. فالصمت إن تبقى عليه،
الموت أصبح، .. لا محال.

مرثية لنجم... سقط في الأفول

شعر: محمد المحسن

... إلى محمود درويش في رحيله القديري

"الشعراء كالأوطان لا يموتون"



ARCHIVE

<http://Archive.iraqisakunt.com>

.. من يدق باب الروح

في خفوت الشمس والضوء...

من يظهر الجسد من دنس الركض

خلف صهيل الروح..

من يمنح حبة قمح تعبق بعطر الأرض

ليمامة تاهت

في رعب السكون الهائم

من يجفف الدمع...

والمخزونون في سبات ملء الجفون

أوغلوا في الدمع في لحظات الوجد

فانطلقا الوجد...

إلى أين تمضي في مثل ليل كهذا؟!

والكلمات التي تركتها فوق الشغاف

تشعل شرفاتها

منارة

منارة

ولا يكتمل المكان...

.. تمنيت لو كنت نورسا

على شاطئ غزّة

كي تعيد ارتحالك.. كل يوم

في المياه

تمنيت لو تجعل من دموعي

الشكالي



قاربا يجتاز العتمة

كي يرسي على ضفة مرهقة

تحتاج إلى يد النهر كي تعبره..

تمنيت لو يتوقف.. الزّمان

لحظة أو أقل

كي تعيد ترميم الحروف

.. كي تسير بكل فجاج الكون

بغير جواز سفر

كي تروح بنوم مفتوح الروح..

.. يفيق على حمرة سقطت
فوق شغاف القلب..
تمنيت لو تبرق للبعداء جميعا أن:
عودوا.. أعطوا- لمحمود بعض وطن!!
ها أنت تنن..
وتنن.. إذا استرجعت غربتك من تيه الضحّة..
عدت بلا وطن..
إلى أين تمضي في مثل ليل-عربي- كهذا؟
إلى أين تمضي.. بعربات الصبح المبكرة
ها أني أراك تلوّح للأمكنة الأمامية
وهي تغيب..
ثمة نورس يتلاشى في الأفق البعيد..
ثمة وجع بحجم الغيم..
عبر الضفاف
ثمة شيء ما ينكسر
يتهاوى..
ولا يصل المكان..
ها.. أني أراك.. في هذه الصمت
تنجس من اختلاجات العزلة..
تنشق بياضا ناصع العنمة... من عتمة القلب

نُحْرا

تَحَلَّله رَغْوَةُ الْإِنْتِظَارِ

أَرَاكَ...

نُحْرا

تَعْتَمِدُ الرِّحِيلَ... فَتَهَاوِي

فِي أَفْلَاجِ جَفِّ مَائِهَا..

هَا أَنِّي أَرَاكَ، تَعْبِرُ مِمَّاتِ

الذَّاكِرَةِ

تَتْرِكُ حَنْجَرَتَكَ زَهْرَةً بِنَفْسِجٍ...

تَلْجُ حَجَرَاتِ الرُّوحِ

تَارِكَا خَلْفَكَ.. صَهِيلِ الرِّيحِ

كَيْ لَا يَنْهَمِرُ.. الْوَجَعُ

وَيَسْطُو عَلَى مَا تَبَقَّى.. مِنْ مَضْغَةِ الْقَلْبِ

سَخَطِ الزَّمَانِ..

المقصود: الشَّعْرُ الرَّاحِلُ مُحَمَّدٌ دُرُوش



أنا هنا... والريح تجري

نفس أخير..

بعدما انقطعت إلى الآفاق

أسراب الغمام والطيور..

...نفس.. يهب الصوت منفاها

إلى نفس جسيم

وتَقِيْ أ تَ حم البداية

بردها... ستكون ماء... لم تكن

ستعود ماء... لم تعد

ستعود ماء...

لم تعد تسع المحاجر دهشتي،

والوقت يرفض أن يعود مسافة للبحر

تضرب موجة حجرا.. و ت ف ل ت، هكذا، تأتي

وتذهب أيقظتها الريح من غفل

وأيقظها الكلام..

ريح تواربها الرميم

وتعيد تكوين الحجر

وتعيد بعث البحر في بحر جديد

لا بدائي التشكّل
لا لهائي السفر
أوحث له - والبحر لا يكفي ليغسل دمه -
"البحر لا يكفي ليغسل دمعنا.."
وتَبَع...
ث...ر...ت
والعين تقطر شهوة
والقلب يقطر شهوة
والمشهد الصوفي أوله اشتها
والمشهد الصوفي آخره اشتها
وتداركت والليل منفعّل على شفة الخريف
ومنكسر...
والقلب مشتعل على ظلم النجوم
يرaud القمر / الرغيف
وينتظر...
والبحر لا يكفي ليغسل دمعها، لغة:
وقوفك صورة شعريّة
وأنا ووجهك جمرتان
على احتضار الوقت
تشعلنا الرياح...

وتأبط الشبقَ الظلامُ
وغشى المكانُ
غيمَ وأرغفةً ت

سا

قطُ

كالمنطرُ

ودم تحلل في دم
ودم تختر في الوريد
تختر الكلمات
في قلب الحجر.
لغة تعذب عاشقها
وتريد أن.. وتودّ لو..
أفق يخبي شعرها
جبل يخاصرها..
ويوشك أن ينور
وتذوب ملء حروفها..
لا.. لا.. خذبيها لا.. خذبيها
لي الماوراء وما أتاه الغيبُ
تشهق ملء أحرفها
كأنّ سماءها شهقت

و كَفَّنَ جوعها كفاه
كَفَّنَه الشجرُ.
قمر يمرِّغ ضوءه، شبقاً،
على شفة المياه
وحفية يأتون، يلتحف الغمام
ويستترُ..

كانوا على ليلين من دمها
كنا على ليلين من فمها
كنا نؤلف ألف أغنية لتألف ألفنا
ألف.. ولام
أفق يحجب شعرها

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

قمر يمرِّغ ضوءه
وأنا هنا والرياح.. تجري،
تتعثر الأشياء في أشياءها
تتبعثر الأشياء في الأشياء..
تضرب موجة حجرا
وتُفْلِت، هكذا، تأتي
وتذهبُ
أيقظته الريح من غفل
وأيقظه الكلام..

وتناثر وكفى: "....."

كفى يكفى البداية أنها شبكت
أصابعنا البعيدة
وانتهت

.....

- الأرض تحيي هوة سوداء!

- .. وسماء هذا الليل؟

- أنت البداية ها هنا

- أنت البداية ها هناك

دماك تبخر في دمي
ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhrit.com>

والوجه

والعينان

الأرض،

هل للأرض أنثى الأرض؟ كيف أحبها،

شفتان؟

جرت الرياح من النهاية دوغما لون

تلحفها السراب

هي لوحة أخرى يشكلها الضباب

.. و ت ن ا ث ر ا ..

تتعرّ الأشياء في أشياءها

تبعثر الأشياء في الأشياء
تضرب موجةً حجراً هناك
أنا هنا أتوسّل امرأة
أن ارتفع قليلاً
واسقطي برداً بحجم جحيمها
برداً على ليل البلاد.
هذا دليل الجالسين
إلى المرايا
مثلما هذا دليل الواقفين على الرماد
وأنا هناك.. أنا هنا
متوسّلاً وطني على شفة امرأة
أتوسّل امرأة على شفة البلاد
وأنا هنا.. والريّح تجري
والغمام كلّها تجري
وتجري مثلها الأيام
والأحلام تجري، البحر، لا يكفي ليغسل دمعنا، يجري
تبعثر الأشياء في الأشياء،
وتظّل تهدر موجة شتوية
تخضّر صخرتنا الوديعة
في انتظار الصّيف تَرْتَبِ كُ السّماءُ

مجدداً

يهمي المطرُ

حجر ينام على حقيقة أننا بشرُ

ولكنّا حجرُ

حجر ولكنّا بشرُ

الريح تحفنا

وت .. ذ .. ر .. و .. نا

وتحفنا

وت .. ذ .. ر .. و .. نا

وتحفنا الصّورُ

.. ونفرّ نخطفنا من المقهى

إلى المقهى الأغاني

والوترُ.



لن يحمل ذكراك

قصة: ميساء الرخيص

جلست تستمتع إلى موسيقى البحر... موسيقى لطالما أحببتها... لطالما حلمت بها... لطالما نبض بها قلبها الصغير...
فالبحر كان أمّها عندما ذهبت أمّها... والبحر كان أباهما عندما رحل أبوها... والبحر كان بيتها عندما اختفى بيتها...
كما تقول هي ذلك اليوم "البحر غالمي"...
البحر كان حياتها... وكان كذلك قبرها ومماها...
تقدر اليوم أن تقول: "البحر حياتي وموتي" أو "البحر أنا"،
هذا إن كان القول ممكناً في عالم مواز لعالمنا... سام عنه... هذا إن بقي قلبها نابضاً بصوت تلاطم الأمواج على صخور الشاطئ...
يومها جلست على إحدى الصخور تستمع إلى موسيقى البحر... ترقب لا نهايته... تستلذ رذاذاً كان يبلغ قدميها الصغيرتين... تملأ صدرها برائحة الأعماق... رائحة البحر... لم تكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها... فكانت في أهي حللها التي أهدتها إياها الحياة... وقد غرست في عينيها الرياحين جمالها... وقد منحت الشمس بشرتها لونا ذهبيا...
كانت تبتسم وقد تعلقّت عيناها بالأفق... بل كان ثغرها يتسم... قد اعتلته ابتسامة الملائكة... أما عيناها فكانت تائهتين...
وأما قلبها فكان تائها... وأما نفسها فكانت تائهة...
فيومها كانت قد تساءلت: "من سأكون؟"
سبعة عشر عاما كانت قد مرت على أنغام حلم طفولي عذب... سبعة عشر عاما وهي لا ترى أمامها غير يومها... لم تعد مرة

إلى الماضي... ولم تستشرف يوما غدها، ففي الصباح لم تكن ترى أمامها سوى غروب الشمس، وفي المساء كانت تعلم فقط أن الشمس ستشرق من جديد... أما اليوم فقد رأت الشمس تتحدث مع البحر لتحدثه عن مسارها من الغد إلى النهاية... فتسألت "من ساكون؟"

سمعتها إحدى الأمواج فاقتربت منها وقالت: "ابحثي عن ذاتك وستجدينها... أظنها ستكون مغمورة بالمياه..."
سألتها: "وكيف؟"

لكنّ الموجة كانت قد حلت على الضفاف فاخفتت... "ستكون ذاتي مغمورة بالمياه... ماذا تعني هذه الموجة بقولها ؟ يجب أن أسأل... لكن من أسأل؟"

وقفت... وأخذت نعلها في يدها... ثمشت على ضفاف الشاطئ محاولة اجتباب الصخور حتى لا تترق قدمها... ثمشي وتأمل... تتمعن في البحر باحثة عن الموجة... فقد تعود لتحييها...

وفي بحثها عن موجتها لم تنبه إلى صخرة ضخمة توسّطت الرمال... فتعثّرت... وسقطت على الشاطئ وقد جرحت قدمها... انهمرت دموعها... ولم تقدر على الوقوف... فقد تمكّن منها الألم...

بكت... صرخت... ولكن الشاطئ كان مقفرا... لا إنس فيه ولا جن... فاستسلمت لنعاس عله يخفف من ألمها... غربت الشمس... هبت رياح ليلة غاب قمرها... فغمرت جسدها بالرمال...

في الصباح وجدها صياد عجوز كان يحاول دفع زورقه إلى الماء فاصطدم بذراعها... اعترته الدهشة، "فمن هذه التي تنام وتغطيها الرمال؟ من هذه التي تركت دفء البيوت وخيرت نسيم البحر البارد؟"

كثرت التساؤلات في ذهنه حتى كاد ينسى أنها حذوه نائمة... ثم عاد إلى الواقع وقال: "سأوقظها وأرى مالها... سأسمع قصتها... قد

يكون حبيبها قد تركها وقد حملت منه... أو قد تكون زوجة أبيها طردتها... كم أحب هذه القصص... وكم أشتاق إليها... فمنذ توفيت زوجتي لم أعد أجد من يجمع أخبار الجيران وقصص القرى المجاورة، لأوقظها ولأسمع قصتها".

انحنى العجوز... نفض عنها ما علق بها من رمال... فرأى قدمها وقد التصق بها بعض الرمل تلون بأحمر دمها... فعلم أنها جرحت... حملها على ذراعيه اللتين حافظتا على قوتها رغم تقدمه في السن... ووضعها في زورقه على غطاء كان فرش لها... ثم سقاها بعض الماء من جرة من الفخار كان يأخذها معه عندما يدخل البحر... استفاقت... فتحت عينيها ونظرت حولها تبحث أين هي... فكان أول ما رأت ابتسامة الصياد العجوز وهو يسألها: "هل أنت بخير؟"، فأجابت: "أظن أن نعم... لكن قدمي لا تزال تؤلمني".

قال: "سأضع هذه الأعشاب البحرية على الجرح... فهي تزيل الألم كما تحمي الجرح من القبح..."

ابتسمت وقالت: "شكراً"... بقيت هنيهة وسألته: "أتعرف ما معنى أن أكون مغمورة بالمياه؟" سكت مطرباً... ثم قال: "ما القصة؟ من قال لك ذلك؟ هل أراد أحد أن يغرقك في البحر؟"، ابتسمت مطمئنة إياه... ثم قصت له حكاية الموجه... ففكر لحظة ثم ضحك وقال: "أظن أنها تريد أن تقول أنك ستعملين في البحر... ستكونين صيادة..."

تعجبت: "لكنني لا أعرف الصيد ولم أمسك صنارة أو شبكة" فأجابها: "ستعملين... سأعلمك... وسنبداً ما إن يشفى جرح قدمك..."

اعتلت ثغرها ابتسامة من المحبة الخالصة...

ابتسمت الشمس وضاعفت إشعاعها على الأرض... سكنت كل
الأمواج في البحر... هربت الغيوم من السماء...
فقرأ الصياد في تجاوب الطبيعة موافقة... وقال: "أرأيت؟ لقد
تمكنت من فكّ لغز موجتك هذه..."

لم يكن البحر علمها النفاق أو المحاملات... فأجابت: "لم
نتأكد بعد أنك محق في تفسيرك... لننتظر حتى نجرب... فرغم
ثقتك هذه فأنا لا أشعر باطمئنان لفكرة ركوبي البحر..."
فشعر العجوز بإعادة ظهور الذكر فيه أمام هذي الأنتى للتخوفة...
وأحس بواجب حمايتها... فربت على كتفها وقال: "لا تخافي مادمت
بجانبك... فإني أتعهد بحمايتك".

رفعت رأسها... نظرت إليه... إلى التجاعيد التي حفرت
وجهه... إلى يديه المرتعشتين... فأخفت ابتسامه كادت أن تغلي
وجهها... فقد علمها البحر أن لا تكون سببا في جروح الآخرين...
سألها: "أين تقطين؟ وصحبة من؟"

أغمضت جفניה برهة وكأها تبحث عن ذكرى دفنتها... ثم
قالت: "أقطن في لا مكان... أقطن صحبة لا أحد... لا رفيق لي سوى هذا
البحر... ولا بيت لي سوى هذا الشاطئ" لم تكن الإجابة كافية فقد كان
العجوز يكره الكلام الشعاري الذي لا معنى له... فقطب حاجبيه وقال:
"ماذا تعنين؟ ولم تبقين وحيدة؟ أين أبوك؟ أين أمك؟ أين بيتكم؟"

ابتسمت... أخذت جرّة الفخار التي تحاذيها، شربت ما تبقى بها
من الماء وكأها تستعدّ لسرد حكاية طويلة... أصلحت من فستانها ما
تطائر كاشفا عن رجلها... رجلين كثرت جروحهما... ثم قالت: "لا
يمكن أن أتكلم اليوم... لا يمكن أن أبوح بسر استأمني عليه البحر... لا
يمكن أن أتكلم قبل أن يحين وقت الكلام... كل ما سأقوله إني لا أذكر

أن كان لي يوما أب... ولا أذكر أن كانت لي يوما أم... كل ما أذكر أن البحر كان دوما حذوي... أنه لم يتركني يوما وحيدة..."

"لم يتركني يوما وحيدة"... ردّدت الأمواج صوتها... غتته الصخور... واحتفظت به ذاكرة الصيد العجوز...

يومها كان يوم عاصفة يوم قالت له: "لنذهب إلى الصيد... استغرب طلبها وقال: "أتوئين ركوب البحر اليوم؟ أجننت؟"

ابتسمت وقالت: "لكنني تعلمت الصيد، تعلمت تقنياته... تعلمت التحكم في الزورق... واليوم إني أسمع البحر يناديني... إنه يناديني... بل يصّر أن آتي إليه... لا يمكن أن أرفض طلبه..."

عبس العجوز... قطّب جبينه... كاد يغضب... لكنه ثمّالك نفسه وقال: "لا يمكن أن تركبي البحر اليوم... فلا يمكن أن تتحكمي في الزورق وقد علت الأمواج... إن ركبت فستركبين الموت..."

لم تنتبه لما يقول... أصرت على عزمها... وأخذت تهيئ الزورق... قال لها: "سأتي معك..."

سألته: "أتريد أن تركب الموت؟"

أجابها: "أريد أن أكون معك... قد أقدر على حمايتك... فتجربتي مع البحر قد تمكّني من التحكم في الزورق أحسن منك..."

سألته من جديد: "أتريد أن تركب الموت؟"

قال: "لا يمكن أن أبقي هنا، على الشاطئ وأنا أعلم أن العاصفة تهاجمك... الأفضل أن أكون معك... على الأقل قد أتمكن من فعل شيء عوض الانتظار..."

لم تتركه يكمل وسألته مصرة على سؤالها: "أتريد ركوب الموت؟"

قال وقد أزعجه السؤال... وقد أزعجه تكراره: "لا... ولكني لا أريد أن تركبه وحيدة..." فقالت: "لن تركبه معي..." كانت حازمة في كلامها... بل كانت تأمره...

أجابها: "بل سأركب..."

أصرّت: "ابق مكانك... سأذهب لوحدي..."

قال: "ولكني لن أتمكن من العيش من دونك... فالأفضل أن أموت معك... أو أن أموت وأنت ذلك... فإن لم أجد يوماً المرأة لأقول، فهذا أنا اليوم أقول لك: أحبك..."

ثم رأت دموعاً تلالأت في عينيه...

إلا أنها بدت وكأنها لم تعبأ بكلامه... لم تجبه... ركب الزورق... حاول اللحاق بها... أمسكت بذراعه ومنعته... قالت: "إن كنت حقاً تحبني فانتظري هنا... سأعود..."

لم يجد خياراً إلا أنها ما إن ركب البحر حتى بكى... كان وثاقاً أن العاصفة لن تخافها... وقد علمته التجربة أن البحر يكون جائعاً أيام تكون أمواجه عالية...

جلس على الشاطئ يرقب الزورق من بعيد... لأول مرة يدخل زورقه البحر... ففهم من اشتراه من المدينة منذ زمن بعيد... كان ذلك يوم أهدته زوجته يرحمها الله حليها يشتري بسعرها زورقاً... ابتسم لذكرها... لذكرى امرأة ضحّت من أجله... لذكرى امرأة أهدته شياها... أهدته جمالها... ثم أهدته عمرها... تداخلت ملامحها في ذهنه... تمازجت بملامح الصبية التي ركب البحر وتركه يبكي شياها... تمازجت الصورتان... لم يكن يعلم أيهما جاءت تناديه للحاق بها...

لكنه لحق بها... ذهب إليها مهرولاً... وقلبه ينبض حباً... وعينه تشعان دموع الفرح... كذا يلحق المحبون بأحبائهم... كذا يغادر الطيبون

أجسادهم... كنا يدخل المحسنون عالم الموت... عالم الطهر... عالم
الجمال الأبدي...

وجها شاحبا... وجسدا هامدا... وابسامة باقية... كنا وجدته
عند عودتها من رحلتها البحرية... ابتسمت...

عَلَّمها البحر أن تبتسم لما يغادر أحدهم الدنيا ليلاقي إلهه...
فابتسمت... كانت تعلم أنها لن تراه ثانية... فبللت بعض الدمعات
جفنيها... لكنها كانت تعلم أنه أحسن حالا اليوم... فابتسمت من
جديد...

لم يَعَلِّمها البحر ما تفعل بجسد هامد... لكنها حاولت... قالت إنه
كان يحبّ زورقه... فوضعت في زورقه... كما أنه كان يحب
البحر... فأدخلت الزورق إلى البحر...

ما إن دخل البحر حتى أخذته الريح بعيدا... وابتلعت الأمواج...
رحمه الله...

عادت لتجلس على الصخور... عادت لتفكر من ستكون...
وكيف ستعرف من ستكون... فقد ناداها البحر ليقول إن الصيد ليس
طريقها...

وعند العودة قالت لها إحدى الأمواج: "ابحثي عن ذاتك بعيدا عن
البحر... فالبعيد طريق إلى القريب... البعيد طريقك إلى البحر..."
وكما كان الأمر في المرة الأخيرة لم تمهلها الموجة حتى تسألها...
واختفت...

أخطأ الصيد العجوز... ولكنها لم تخطئ أن آتبعته... كنا كاد
البحر أن يقول لها...

أما الآن فليس أمامها إلا أن تبحث عن نفسها... أو أن تبحث
عن إنسان آخر قد لا يخطئ في تفسير أقوال الأمواج... وكما أمرها

الموجة قررت الابتعاد عن البحر... لكنها توقفت برهة... "هل سأبتعد عن البحر؟ منذ ولدت أو بالأحرى منذ تبدأ الذكري لم أر غيره ولم أبتعد عنه... إن ابتعدت فساكون وحيدة... وحيدة فعلا..." ولم تقدر على التحرك خطوة واحدة... نظرت إلى البحر... إلى الأمواج... إلى الزبد أبيض اعتلاها... إلى حياتها... إلى ذكرياتها... إلى بقايا حبها... إلى طيف طفولتها...

انهمرت الدموع على خديها... حينها عرفت أنها لن تقدر يوما على الابتعاد... على الرحيل... على الوحدة... لن تقدر يوما أن تترك سبع عشرة سنة وتذهب... أما البحث عن نفسها... فليؤجل... أو ليلغى... سيكون ذلك أحسن... يكفيها أن تبقى في حضن من أحبت... وأحبها...

سمعت نداء متبعثا من الأعماق... موسيقى البحر... موسيقى سمعت فيها صدى نبضات قلبها وتحركات نفسها...
http://Archivebeta.Sakhrit.com
ولأول مرة لا تعني معنى نداء البحر... لأول مرة لا تقدر على كشف أسرارها... لكنها قررت الارتقاء في حضنه... كانت محتاجة لأن تشعر به قريبا منها، يحيط بها، يحميها...

نزعت فستانها... واستحابت لندائه كما أحبت أن تفهمه... وما إن دخلت حتى قال لها البحر: "لست أنا من يناديك إلى حضنه... بل هي أمك... إنها أمك تناديك إلى الارتقاء في أحضانها... إنها أمك تريدك... إنها أمك اشتاقت لحبك... اذهبي... اذهبي وارتمي في حضنها..." استغربت كلامه وقالت: "لكنني لا أعرفها... لم أرها في حياتي... ماذا تريد مني اليوم؟ إني لا أحب غيرك... أنت طفولتي... أنت أمي... أنت حياتي..."

أجابها: "اذهي... اذهبي إليها... ولا تخافي... فأني معك في كل مكان..." ثم صمت... صمت كل ما حولها... وأصبحت لا تسمع سوى صوت أنفاسها...

خرجت... ليست فستانها... ستبحث عن هذي الأم التي تناديه... لكن أين ستجدها؟ هي لا تعرف حتى اسمها... لا تعرف شيئاً عنها...

حطّ طير اسود على كفها وقال لها: "ابحثي عنها بعيداً عن البحر... وستجدينها قرب البحر..." ثم اختفى كما ظهر... أخذت نعلها وابتعدت... لم تلتفت... كانت تعلم أنها لو رأتها ستضعف وستبقى... فذهبت... قصدت قرية ساحلية قريبة... قد تجد هناك من تسأل... هناك وجدت عجوزاً... عجوزاً تجلس على عتبة بابها... نادتها العجوز... كان صوتها صدى صوت تلاطم أمواج البحر في الليل... أجابتها... جلست حذوها... فقالت لها: "عمن تبحثين في هذه القرية؟ ومن أين جئت؟" لم تخف عنها شيئاً... حدثتها عن كل شيء، عن الموجة، عن الصيد، عن الطير الأسود... فابتسمت العجوز وقالت: "عرفت أمك يا حبيبي... مرت من هنا منذ سبع عشرة سنة... وكانت تسألني أين لها أن تضعك لتكوني في أمان... كانت حبلى آنذاك... وها أنت اليوم تسأليني أين لك أن تجديها... إنها لم تفارقك لحظة واحدة... ما إن بلغت حولك الأول حتى كانت هي قد فارقت الحياة... وجدها صياد عجوز مرمية على الشاطئ فأخذها في زورقه وسلمها إلى البحر... أنا من أشرت عليه بذلك... فذلك كانت الوسيلة الوحيدة حتى تبقى معك..."

سألتها حينها: "وكيف لي أن أرغمي في أحضانها اليوم؟"

ابتسمت العجوز مجدداً وقالت لها: "إنها تنتظرك في البحر... تحت الأمواج... في أعماق الحياة... على زبد الوجود... أمك سهرت...

وهاهي اليوم تحترق... فارغتي في صدرها قبل أن يتحول إلى رماد...
الشوق لهيب محرق يا حبيبتى... "لم تتركها تكمل... أسرعت إلى
الشاطئ... إلى البحر... وقفت أمامه نظرت إلى أمواجه عليها ترى صورة
أمها... بكت...

بكت الصخور معها... هدأت الأمواج لقداسة دموعها...
وقفت الأطيار جامدة أمام حبها... ردّد الكون صدى شهقاتها...
وانتفضت الأرض... وغمرها البحر...
فارغمت فيه... ارتمت في أعماقه...
وغطتها المياه...

بقي نعلها يطفو على السطح...
أما هي فقد غاصت في أعماق حياتها باحثة عن حضن أمها...
فقد خافت أن تحترق أمها من أجلها دون أن تراها... فاحترقت
معه...
فارغمت في حضن حبسها وأبيها وحياتها...
<http://Archivebeta.Sakhril.com>

هدأ الكون...
صمتت الصخور...
عبادت الأمواج إلى حركتها...
طارت الطيور من جديد...
ولم تبق ذكراها في غير قلب أمها التي نادتها...
والتي قالت لها يوماً: "البحر يحمل الحياة ولا يحمل الذكرى"

انتحار أبو خلف

قصة: محمد عبد السلام مرزوقي

عشرون عاما مضت كانت له خيطا يستظل به، يشتري
البؤس من حوانيت عجل الزمان بغلقها فانتهت تشحذ ليل المارقين
وتسرق من أفواههم جرعة الماء التي استطببوا ملوحتها.

ركب الدنيا وقد شبّ في العمر لكنّه لم يعقل يوما فصولها
وسرى في شوارعها يقتفي أثر السّاكنين في جحور مفصولة عن
زمن نأى عنه البشر إلى الأبد.

عندما استظفني ذات مساء كنت أرى فيه شكلا يتماثل
خلقا وأدبا يزيد من المرء يقينا بأن الله خلق تغاير المحبة والإيمان في
كل مكان وزرع حسن المآب في قلوب من اصطفاهم من عباده.

- إنه أبو خلف إذا مرّ بالزّرع انحرف

ملت برأسي في انحناء عفوية إلى صاحب القول فأوما
بابتسامة ظلّت ترافقني طيلة صبري معه في مقهى "الاقليز"¹ صحبة
شلة كأنهم فقايع تنصيد عشا من الدباير تستريح به أو جرعة من
دخان يستورده الحاقدون على زمن غنّ لهم في مدينة نخجل من
النوم أكثر من ساعتين.

- كلهم منافقون جرّبتهـم طويلا حتّى انفلت عقلي فارتضيت
لنفسى عزلة وتوحّدا.
- هل يعقل هذا يا أبو خلف! ؟ حتّى هنا أسمع هذا الكلام !!
- سوف تعيشه بنفسك وتندب كثيرا لصحبة تكشف زيف
الرجولة في كل مكان.

(حدثت نفسي في صمت موجه) :

- ربما كان ذلك أمرا عاديا في زمن استعاض فيه الناس لغة
الفصل بلغة الكلام، أي عالم هذا الذي أسمع وأعيشه ؟
وأي رجولة تحكي قصص المتطقلين العاشقين ؟

ظل أبو خلف يلوك كلاما غريبا أشعري بتقمة الحادة على بني جنسه
حتى شيوخ قرينتا فهم عنده صُغُرُ كالأقزام ... فلم ينج من تلطف
له ساعة أو جانب قوله لحظة صار له كالشيطان ينتقم أو كعجائز
الليل لا تكف عن اللغو حتّى أذان الفجر.

ومرّ السويعات ثقلى بأحزان أبي خلف يحفر لهذا ويكفر
بذاك في سبّ وشتم ولغط أربكني إلى حدّ تضيع فيه أفكارى شاردة
بين الحيرة والإشارة إلى غربة شرّقت فيها مع حلم دام سنوات
أدمت جسمي وكادت لعشقي الذي سجنته ليلى في محاجرها على
مشارف مدينة المنصور.

- صباح الخير أبا جاسم، أيعقل هذا أنت في فرنسا؟! أدهشتني حقاً ولم يجل بخاطري ما رأيت.
- إيه... ألفتني مرضعتي هنا فرضيت بما مكرها وحملت نفسي محازن أم استكرهت سفري لكنها عادت تقبل وجه ربها بالدعاء رحمة بي ورضوانا.
- قليلاً من الصبر وستغير الأمور بإذن الله.
- أف ... أف... تدخل أبو خلف قاطعا الحوار بتأفف جارح قلما سمعته ما جلست مع الأصدقاء والأحلاء، يدفن حقدا لا مبرر له لكل من يمر تحت عينيه أو لمسه، لقد نصب نفسه منقذا للآخرين ومرشداً ينصف المساكين ويعطف على هؤلاء الذين التقوا صفة من جحيم برد فرنسا حسبوها الجنة الموعودة فظلوا بأرائهم واستضيقتهم الأرض فلا سبيل لهم غير الالتماس والتودد لأصحاب الفضل الرفيع والشأن العظيم الذين يمشون بأبهة الطواويس وفراغ الطبول، ويأتي أبو خلف في زيّ النبيه الكريم الذي يعرف قدر نفسه يستقدم هؤلاء الضعفاء - العقلاء - في بيت تمنحه تلك البلاد لكل من تمتع بموية البقاء فيها.
- لا يهتمكم من شيء... البيت بيتكم وراحتكم هي راحتي...

كلمات يردّها أبو خلف لكل من قصد بابه في
استرخاء تخاله قدّيسا يرتدي معطف التوبة يرحم ويعطف
ويقول :

- "إلى الله أفعل وإليه يرجع الثواب "

وكغيره وقع أبو جاسم في حبّ أبي خلف الذي أوهمه بعقريته
وفصاحة قوله وقدره في بلاد الإفرنجية، يعرفه الجميع لأنه صاحب
القلب الكبير والنفس الأبيّة تذكره الأجيال التي عاصرها هنا، وهو
الذي جالس المقاهي زهاء نصف عمره، لكنّه فعل ذلك برجل
عرجاء وعقل خاوي من حكم الحياة أوقعه في المزالق الوعرة
والأماكن التي استهجنها الناس يميل إلى بحانية الحق ويدّعي سفسطة
تخلج الأذن سماعها من أجل أن يوهم نفسه بصناعة الكرم
والأخلاق والمروءة.

- كيف رأيت فرنسا يا أبا جاسم، أتحسبها نزهة عابرة أو
عطلة في حَمَام الأنف تعاكس الليل وسمّاره وشواطئ البلاد
الجميلة العذبة.

- إني لا أدّعي ذلك فليست هذه غربتي الأولى وتجربتي
السابقة أكسبني صحوة ورجولة.

هكذا أصبحت يا أبا جاسم تعاشر أسقط التعابير ثقافة وأرذل الناس
سخفا تبتيك الأيام معه، تمتحنك على الدوام ويسوقك الزّمن إلى

أعسر امتحاناته فلست بالميت أنت ولا من أحياء البشر ترزق
تعلقك الدنيا في إحدى زواياها لتنظر إلى الكون بعمق تغوص فيه
مع أوهام العابثين في ملك الله.

كان أبو جاسم يحدث نفسه بهذا الحزن الكبير كلما اختلى
بإحدى المقاهي أو الشوارع الممتدة في عمق المدينة الحاملة، وتستمر
أكذوبة الأيام تجتر عذباته كلما وضع يده على رأسه يستجيب له
الحلم بكل قواه، ملاذه الوحيد من غضب ذلك المتهالك على دنيا
البشر لا يعقل منها غير اليأس والشقاء وحياة الجهالة.

يياكر أبو خلف كل صباح يتفقد مملكة النحل التي تباشر
عملها طالبة من الله العون والرزق يمتع ناظره بهؤلاء الذين جادوا
على الدنيا بعقولهم وأجسادهم فحادث عليهم خيرا ورزقا ويعود
في كبرياء ساقط يجر أدراج أقدامه لا يحفل من سخرية إفرنجية
تعاشره سنوات أو ذاته القانطة التي خنعت لسبات عظيم.

كان صوت الجرس يتناول في انحناء البيت لا يهدأ ثانية
فيعاود صوتا مزعجا جعل العنكبوت المتقرفص في زاوية من زوايا
المطبخ يقفز هلعاً، ويأتي دورك يا أبا جاسم لتستفيق في ارتداد
عنيف يجذبك الخوف من لغط أبو خلف فتستغفر الله وتستند إلى
كلمات تستعيز بها منه ومن الشيطان كل صباح.

- صباح الخير... ألا زلت نائما ؟!

- نعم لا يزال النوم يشدني إلى الفراش.
- كيف تنام يا هذا ألا تستحي مما تقول.
- مهلا... سأخرج، ترقبني قليلا فقط.

كانت الظلمة تعتم عيني فأنصرف شاردا في اتجاه الحنفية
 لأكب الماء الصباحي المتلج على وجهي محدثا صحوة لعروقي التي
 انتصبت جرأ أبو خلف صاحب الكرامات الشيطانية المغرصة
 يدوس بحوافره المطلحة قيم الآخرين ورجولتهم أملا منه أن يستر ما
 انكشف من فضائح جمّة وما عرّته أيامه من وساوس عقله الضائع
 مع أحلام تخجل صبية الحي سماعها، ويمرّ هذا اليوم كغيره أحصد
 معه ما تيسر من نشرته الروتينية من أخبار الواقفين أو الجالسين،
 الأقوياء والضعفاء والمتجدلقين العابثين... نعوته جمّة وعديدة لهؤلاء
 الذين ركبوا الدنيا بسرعة خارقة سبقوه فتركوه على حافتها
 يستنجد كل من مرّ به يترقب ساعة الانتحار وراثاء الدنيا له. كنت
 أوافقه بالإمساء قسرا لعل الساعة تمرّ سريعا والنهار ينهي ضوؤه في
 انخاء لوجهي الذي فقد ماءه الفضّي لما دنا من حرم تدنّسه بعض
 الأيادي القذرة أتت من كل صوب تشخذ حضارة جهلت عطف
 الأمومة وعلبت الإحساس وسعّته بأجنس الأثمان في الصيدليات
 ودكاكين السجائر كفن يبيع أنوثة العصر على قارعات الطرق.

الرحلة الأولى للأستاذ الفحل

قصة: محمد الجلاصي

ويحسبها الجاهلون نقاهة واسترخاء ...

والأستاذ يخبط يخبطة عشواء ...

قال سعد: يستيقظ الأهالي كل فجر على كتابات ضخمة تملأ الجدران تدعو للقلق وتفحش الوصف للحكام في هذا الحي أو ذاك وعلى منشورات معارضة تسرّب تحت أبواب البيوت في ذات الحي ولم يُعرف الفاعلون. وفي النهار تمحى الكتابات وتعدم المنشورات لكن تعود من جديد لتظهر في الصباح الموالي في حي آخر. ووشّت بخليفة الفحل افتراءً وبمئاتٍ وأشباه ملّ الأستاذ العيث بقايا جمالها ولم يعد لذّها فريداً. أعلمت أنه يأتي قبيل الفعل في بيته كل فجر كأن يتصفّح وحده مجلة جنس مهربة جالدا عميرة أو يشاهد فيلماً إباحياً جالدا عميرة تكراراً أو يستضيف إحدى بائعات الودّ والهوّى تجلد له عميرة أو يلتقي في بيته المارقين عن الأمن العام يجلدون نظم البلاد، فأجبر الفحل على التزوح الإجباري مع تغيير محل الإقامة بعد أشهر من الإيقاف التحفظي والاستحوابات والصفع والجلد واللكم. ألقى به في المدينة ولم يكن شغوفاً بالسكنى في المدن لكنه غير مخير. أقسم خليفة اثنين وعشرين مرة أنّ ما قيل عنه هو من قبيل الوشائيات المغرضة وأنه لم تر عينه ولو لاثنتين وعشرين مرة أجساد نساء عاريات على الورق وفي الشاشات وهو في هذه المدينة ولم يجلد عميرة البتّة وأنه لم يجالس مرة واحدة

مارقا. وصدقَه المسؤولون في ما أقسم عليه لكن تفتنوا إلى عدم ذكره للقاء بائعات الودّ فاعتبروا ذلك جريمته واستقرّ رغم كل شيء في المدينة الثانية همّ شغله وبيته. ولم يدم المكوث بها على تلك الحال إلا أياما معدودات حتّى انفجر بركان هائل فيها وفي غيرها من أجل خبز المدن وسعره في نهاية الخمس الأخير من القرن الذي غادر. كانت جحافل الخلق هناك ذات نوعين نصفهم بأزياء رسمية ونصفهم الآخر بلباس مدني عادي. واشتدّ الصخب وخليفة غير دار بما يحدث. سمع الضجّ والهرج والصراخ كتلاطم المراكب في البحر بصناعة الأرياح فخرج يتعرّف الأسباب فجرتَه فتاة ثعلبة كانت مع موج الغاضبين وهي تداعب لحمه وتدعوه أن يصرخ مثل الصارخين ويرفع ما يرفعون من الشعارات فسار مع السائرين صامتا يحملق ولا يفقه من شعاراتهم معنى ولا يدري ماذا كانوا يصنعون فلقد تعودّ صبح خبز البيوت وحده كل يوم كما كان في مدينته الأم. كان بصره يلاحق الفتاة، يمتني النفس بها متخيلا رقتها وسمكها، غنجها وهرجها، لذها وفحيحها... هكذا كان فترة حياته الماضية مغرما بالنساء وجرتَه امرأة إلى سنوات عجاف تلقى فيها عقابا لم يكن يتخيّله. ضرب الأستاذ خليفة ضربا مختلفا وأهين إهانات تركت له في صميم فؤاده جراحا عميقة ونام مع المنحرفين وديست كرامته ولطّخ وقاره وسجّل مع المجرمين ولم يكن أبدا كذلك. كان يتذكر مداعبة تلك الفتاة له فيقذع أمها وأباها وصحبها وجاراتها وأخواتها وأخاها ويرميهم بالفحش. انقلب ناقما كارها لجنس النساء إذا كنّ بعيدات عنه.

قلت أنا عبد السلام بن ريش النعام أسائل ابن أمه وعشيقها
ولكنه لماذا كان يلاحق الزاهية بنت ذيل الفأر ويهيم في الغاب
من أجلها؟ أليس معجبا كالجماعة بحسنها مفتتنا؟
قال: لعله يريد بها شرًا وينوي الانفراد بها ليدقها دقا ويتنقم من
النساء في شخصها.

قلت: ولكنه يبحث عنها ويناديها ويناجي طيفها. وبساره بما في
الفؤاد من لوعة وحرقة وسقم سببه البعاد. أَوَ لَمْ يَتَوَقَّعْ نفسه كطائر
القمرى الذي تحلّ وجوده في الخرابه؟

قال سعد بن أمه: لعله يا عبد السلام يريد مغالطتها حتى
تستأنس إليه وتجرّها رجلاها إلى قدرها.
قلت: يا لغرابه العاقلين من أبنائك يا قريبي. أكمل يا ابن عشيق
أَمَلَكْ ماذا كان منه بعد ذلك .

قال: بعد أن هام القمرى بعيدا أو كذا خيل إليه، اقتعد قدميه
وطأطأ رأسه ونزّت مقلته كعدا واشرورقتا حنينا لمدينته وألما وأشرق
خذه أَمَلَا لكن سرعان ما فحّت أفعى الحية والشوم فيه ورفّت أعصابه
وهو يذكّر الواقع المرّ تساقط أوزاره الثقيلة على المدينة وعلى أرواح
أهلها العكرة. ارتفع سعر خبز المدينة وهم يتفكهون ويشتغلون بحياكة
الكنى لبعضهم ومات خلق كثير وهم يزرعون في بطون نسايمهم
الأطفال ولا يفقهون، وعاد سعر خبز المدينة كما كان من قبل وغلت
أسعار الخمور ومدينته كما المدينة من قبل والناس فيها كالناس فيها من
قبل، يتفكهون ويتنازبون ويضحكون... ويضحكون ويسكرون

ويتركون نائرين نابي القول شمالاً ويمينا. لم يكن يحلو لأهلنا الشراب والخمر في هدوء متسترين، كان لابد أن يترنحوا بعد السكر في الشوارع ويهرّوا ويسبّوا ليعلنوا لمن يصادفهم أنهم سكارى. أما الأستاذ خليفة فقد هام ولا يزال باحثاً عن الصنية الفاتنة يريد أن يثار من المدن بضرها أو بلذها.

قلت أنا عبد السلام وقد تسلّقي القلق ونالني الكرب المشقة:
المخروسة أهون من بقائي في مسقط رأسي يا ابن أمه، دعني أهمّ
بالفرار منها وألحق عودة القطار.

قال بعد أن زَمَّ بشفتيه زميماً:
أقبل أن تتعرّف قصة مدينتك أيها المليط ابن زغب الفراخ؟
قلت: أو لم ترو قصتها بعد يا سعد ممثلة في خليفة الفحل؟
قال: تلك قطرة من نَمَّ أيها الرخو الشاحب. أو تخال أنه خلال
غيابك عنها لم يطرأ طارئ ولم تتغير أحوالها. آه يا أبا زلة يا عبد
السلام، ساءت الأحوال وارتطم السكان بالجدران وهم يحتفظون أبداً
بعقليات أهلها الزمان.

قلت: دعني أيتها الخابية أعود أهلي وبيتنا ثم يكون لنا بعد ذلك
لقاء لمتابعة الشريط. نهضت ولم أكن أنوي زيارة أهلي إلا بعد صنيعة
قرزت فعلها دون أن أسرّ لسعد بها.